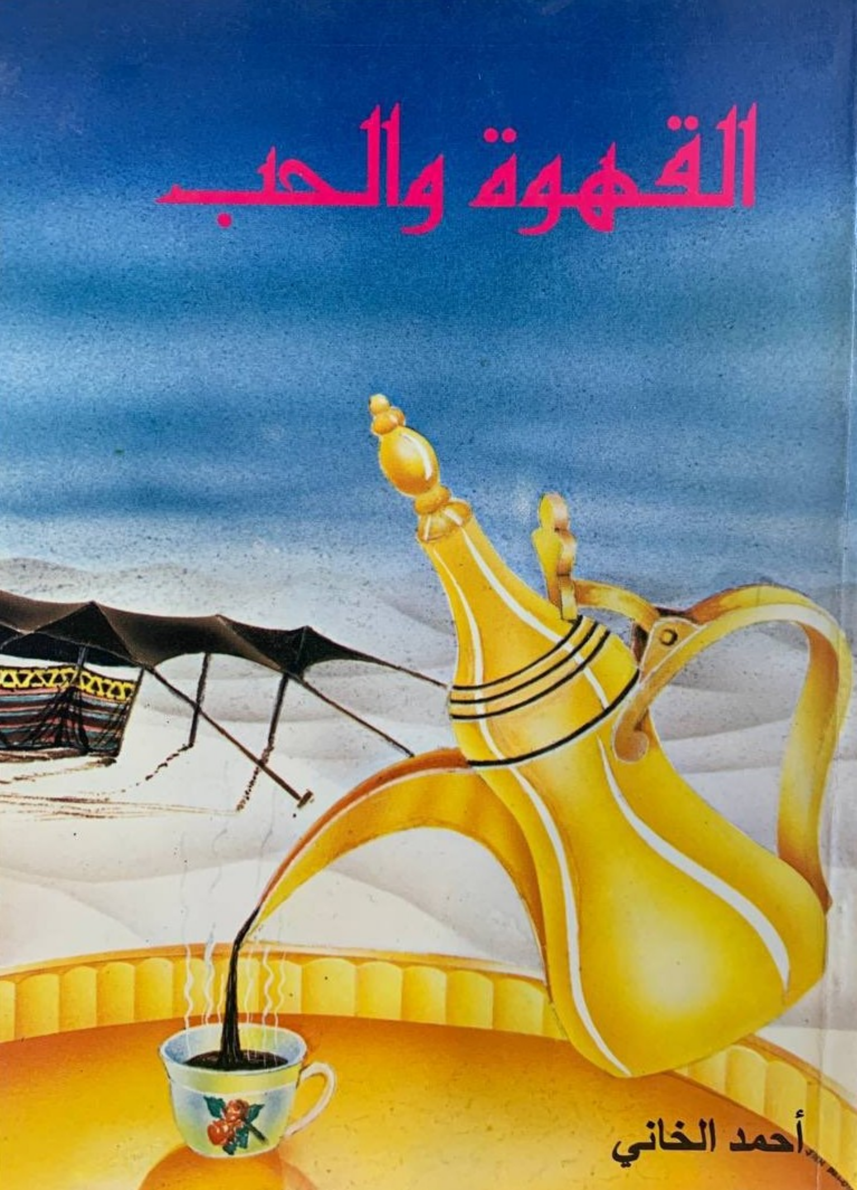
القهوة والحب



أحمد الخاني

القهوة والحب

أحمد الخاني

الطبعة الأولى

١٤١١هـ

فسح وزارة الإعلام
المديرية العامة للمطبوعات
برقم ٣١٤٣/م
وتاريخ ١١/٥/١٤١١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء:

إلى كل شاعر صب القهوة في شعره
أهدي هذه الأوراق المعطرة.

المحتوى

حوار مع النفس

فرغت من قصيدتي «ملحمة بدر» وكانت أربعة عشر ألف بيت ولما طبعتها جاءت بعد التنقيح في حوالي عشرة آلاف. واستشرفت نفسي إلى الاستجمام، واشرأب عنقها إليه، ولكنها لم تجرؤ على أن تصارحني بهذا الطلب، لأنها تعلم أنني لا أطاوعها، بل تعلم أن مخالفتها من المغريات التي ولعت بها. لكن أمّارتي بالسوء لم تيأس مني، إنها تعلم أن طلب الراحة مرفوض، لأن هذه اللفظة لا وجود لها في قاموس حياتي، لذلك احتالت علي بقولها الذي يشبه أن يكون منطقيا:

– أليس لنفسك عليك حق؟

– بلى. ولم هذا السؤال؟

– أنا لا أقول: اخلد إلى الراحة بعد هذا الجهد

– إذا أيتها النفس الكسول الخمول ماذا تقولين؟.

– أقول: لو أنك قبل استعدادك لملحمة «أُحُد» لم تنس نصيبك من الراحة.

– أتطلبين الراحة مني؟.

– ليست الراحة رديفة الكسل

– ما هذه السفسطة؟ إذاً أية راحة تعنين؟ إذا لم تكن الراحة تعني الكسل فماذا تعني إذاً؟

- أعني بالراحة أن تؤلف موضوعاً طريفاً مسلياً ممتعاً ترتاح إليه عند الاستجمام، وتركن إليه عند التعب.
- هكذا تقولين؟. ولكن ما هذا الموضوع؟.

- الموضوعات الطريفة كثيرة، بل ما أكثرها! القهوة والحب.

الفروسية والصيد، رحلة إلى ساحل البحر، قصتي مع الشعر والأدب، عيون قصّارين، النواعير، أغاني المروج الخضراء، غابات الفرنلق، الزبداني... الخ ... الخ ... إن النفس في هذه الظروف لتخشى على صاحبها من جلطة أو مرض خبيث نتيجة القهر، فليكن هذا الموضوع بلسماً لتلك الكهربات ذات التوتر العالي الخطر. أليس لنفسك حق عليك؟ أليس لقارئك الإنسان حق عليك؟.

- اسمعي أيتها النفس ما أقول: إن الشيطان يفتح للإنسان سبعين باباً من الخير ليوقعه في باب واحد من الشر.

- استخر واستشر.
- هذه أول مرة أيتها النفس أرى منك ما أظن أنه يشبه الحق و «حسن الظن ورطة».
- إنك انهزامي يا صاحبي، أقول: إنك أكثر من انهزامي.
- لا تثيريني أيتها النفس، فإنك لن تخرجيني عن رباطة جأشي، ولن يكون قراري رد فعل، فمن الطبيعي جداً أن يرتاح

الإنسان بين عمل ضخم انتهى منه وبين عمل أضخم منه مقدم عليه.

- وأي موضوع اخترت؟ الأخير؟

- كلا. بل الموضوع الأول.

وهكذا اصطادتني نفسي.. وكتبت.

الرحلة الممتعة

القهوة والشاي توأمان في الضيافة العربية الأصيلة، وربما في الأسرة الإنسانية. لذا قرنت بينهما، علماً بأن ولادة الشاي أو اكتشاف في هذا الكنز إنما كان في الصين قبل أن تكتشف القهوة بآلاف السنين. وربما ذكرت القهوة هنا وهي تعني القهوة والشاي معاً في هذه الأوراق حيث ذكرت مجالس الأنس في البادية والحضر... إن هذه المعشوقة السمراء التي تجلى في الفناجين قد غدت سلطان قلوب الأدباء والسياسيين وأصحاب الأدمغة الجبارة والمنهارة على حد سواء، وتستهلك في انجلترا والبلاد الإسكندنافية أكثر مما نستهلكه نحن العرب في بلادنا، إلا ما يستهلكه القادة من المفكرين والشعراء والمحبين والعشاق المتيمين...

وقد كانت القهوة العربية الأصيلة تأخذ من يومي الساعات الطوال لإعدادها في مضافتنا، لذلك لملمت أهداب الذكرى على شاطئ هذا الموضوع، ورسمت أطيافه على هذه الأوراق عن معايشة ومعاناة وتناغم وانسجام.

ومن طريف تذكاري بعد أن أنهيت ملحمتي «الطريق» وتوغلت مبحراً في ملحمة بدر أنني كنت أشعر بالإعياء أحياناً، فقد بدأت إجازة الصيف، وتهيأت للشعر، وتهيأ لي،

فكنت أصلي في المسجد صلاة الفجر، ثم أجلس إلى مكتبي حتى صلاة العشاء، ولا أنام في النهار فخطر ببالي أن أذهب إلى صيدلية أستعين الله على التعب، ثم بما يشير به علي الإخصائي الخبير وقلت:

- عندك دواء يساعد الذاكرة ألا تتعب؟.

- لم أفهم قصدك.

- إنني أتعب في الدراسة، وأريد دواء يساعدني على التفكير ويريح أعصابي.

- ممكن توضح لي أكثر لو سمحت؟.

- يا أخي، أدرس في اليوم بمعدل ١٥-١٦ ساعة، وأريد عندما أنتهي من الدراسة أن أكون بالنشاط نفسه الذي بدأت به، فهل لديك دواء يساعدني على ذلك؟.

- ممكن أعرف اسم سيادتك؟

- أنا فلان.

- الشاعر؟ الكاتب؟.

- أحيانا أكتب الشعر.

-هذا مستحضر من الأعشاب الطبيعية، وليس له مضاعفات.

وقد تبن لي فيما بعد أن فنجاناً واحداً من القهوة يعدل ثمنه (٥٩) ريالاً. بل فنجان القهوة أفضل. وعدت إلى قناعتي في تزويد شاعريتي بوقود مزدوج من القهوة صباحاً وعصراً، ومن الشاي المعطر مع ورقة الليمون فيما بين هذين الوقتين.

وكنت أتوقف عن الكتابة عندما أجد في نفسي فتوراً، وأكتب ما دمت نشيطاً، وفي حال الفتور كنت أحتال على نفسي أو على التعب الذي يغزوني بأن أعد بذاتي دلة القهوة أو إبريق الشاي المعطر المثقف، وبقي فنجان القهوة ثم فنجان الشاي سيفي وترسي في صراعي مع الملل الذي كان يغزوني في أثناء دخولي بحر السكون الذي لا جانبية فيه وهو فترة الظهيرة، ويحاول جاهداً أن يطبق جفنيَّ لأموت مدة ساعتين تقريباً، فإذا أضفت ساعتي العدم هاتين إلى ساعات العدم الليلية يصبح عمر العدم في حياتي أطول من عمر الفاعلية، وهذا ما كان إحساسي بالزمن يأباه عليَّ كل الإباء. وعلى كل حال فنوم الليل راحة جعله الله من النواميس الطبيعية للإنسان، ومع ذلك فالتابعي الجليل عبدالله بن عامر التميمي قد دعا ربه أن يذهب عنه النوم ليعبده ليل نهار، ولكن رحمة به لم يستجب له.

وقد أهديت إليك يا صديقي الشاعر هذا الكتاب لتصور القهوة كما تحس نشوتها، ولا سيما في اللحظات الحالمة التي يتجلى عليك فيها الإلهام صافياً صفاء البحار ... صفاء السماء وعين الحبيب.

وأرجو لك يا صديقي مع القهوة رحلة ممتعة.

أيهما أكبر:
الحب في نفس المحب أم نفس الحبيب؟.

لصديقنا الأديب الفريق يحيى المعلمي هذه المقطوعة:

ومـــا حبـــي لهـــا قصداً ولكـــن
بهـــا مـــن أختهـــا سحـــر العيـــون
محـــاسن أختهـــا خلـــعت عليهـــا
فـــزاد بأختهـــا وبهـــا فتونـــي
جمالهمـــا تحـــدّر مـــن معيـــن
وحسنهمـــا توحـــد فـــي الفنـــون
تحيـــر فـــي غرامهمـــا فـــؤادي
فـــإن قسّمت قلبـــيَ فاعذرونـــي

وهـذه الأبيـات الرشيقـة أهدانـي إياهـا أبـو عبيـدالله الفريـق يحيى ودرستها له مع مجموعـة قصائـد مـن شعـره فـي كتابـي «شعراء عرفتهـم» وممـا قلتـه فـي هـذه الأبيـات: «لنـا مـع هـذه المقطوعة وفقه خاصة.. نريد أن نناقش هذا المذهب في الحب إن صح التعبير، .. إنها على كل حال فكرة فنان رشيق خفيـف الظل مبدع جعل من الفكرة الفلسفية شعرا».

وهذا الشعر جعلناه مدخلاً لموضوعنا هنا، ولكنه لا يطلعنـا على موقـف الطـرف الآخـر، ونحـن نـتساءل: هل جـعلت كل

أخت لشاعرنا في قلبها من حبه نصيب؟ أم أن الحب بقي من طرف واحد؟ إن شاعرنا لم يطلعنا على شيء من ذلك. ونحن نفترض هنا ابتداء أن الحب متبادل، وإلا لما تمت لدينا معادلة ما. وربما يتبادر إلى الذهن في حب المعادلة أن الحب متوازن بالقسطاس بين المحب والحبيب، وأن كلاً منهما بحب الآخر بالنسبة عينها. وأنواع المحبين كثر؛ فهناك حب الوالدين لولدهما والعكس، وحب الأصدقاء، ولقد سئلت مرة عن رأيي في صديق لي فقلت: لو أننا كنا في سفينة وتحطمت، وبقيت خشبة لا تحمل إلا واحداً منا لتخليت له عنها.

وهناك «فتاة الأحلام» و «فتى الأحلام». فإذا تلاقيا على حب فأيهما يكون حبه أكبر؟ إن حب الحبيب يكون استجابة للمحب؛ المحب في الوقت نفسه محبوب، وكذلك المحبوب هو في الوقت ذاته محب، فكيف نميز المحب من المحبوب؟ الجواب في المبتدىء إنه هو المحب والمستجيب محبوب. وفي قانون التوازن العاطفي لا يعقل أن تكون الاستجابة أكبر من الفعل نفسه.. وقد يكون المحب أحياناً (ماسيوشيا) يتلذذ لما يعذبه الحبيب، بينما نرى الحبيب أحياناً نرجسياً بل ساديّا. ولا نريد أن نغوص في هذه الفكرة لنقول: قد يكون المحب أنانياً يحب الحبيب لنفسه - أي للمحب نفسه - أو يحب نفسه في الحبيب، وهذه سفسطة سقيمة عقيمة؛ فهل كان شعراؤنا

العذريون المرقش الأكبر وقيس وعروة.. قد ماتوا حباً بأنفسهم؟.

الخاطب والمخطوبة وفنجان القهوة:

يروى أن خاطباً أراد أن يكتشف أخلاق مخطوبته، وحين زيارته لها قدمت إليه فنجاناً من القهوة، ولما حمل الفنجان تظاهر أنه وقع من يده فأصاب ثوب مخطوبته، فتبسمت أمام الأهل في وجهه، ثم غابت وعادت بثوب آخر وكأن شيئاً لم يكن. وبعد الزواج بفترة وجيزة قام بينهما الجدل فقال الزوج: إنني رشقتك بفنجان القهوة لم يظهر عليك الغضب، والآن تثورين لأتفه الأسباب؟

فأجابته: صحيح أنه لم يظهر على وجهي الغضب يومذاك، ولكنك لو دخلت المطبخ لرأيت أثر أسناني على درجات السلم الخشبي.

القهوة من علامات الزعامة والرياسة[(١)]:

اداب القهوة مهمة جداً في حياة البدو خاصة، والعرب عامة، فللقهوة قيمة خاصة، وأهمية عظمى لأنها من علامات الزعامة. ومن آدابها أن تدار من اليمين بلا تمييز، وأكره ما

---

(١) جريدة الرياض ١٤٠٧/٣/٢١هـ زاوية «أوراق من الوطن العربي».

يكرهون الفنجان النايـر وهـو الـذي يـخص بـه المضيـف أحـد الوجهاء دون غيره فيقولون «الفنجان النايـر يقطع قبايل».

القهوة العربية، أدواتها وإعدادها[1]

القهوة العربية تعتبر إحدى أبرز رموز الكرم العربـي الأصيل في الحاضر والماضي. أدواتها :

١ـ دلة الزل أو المبهرة. ومنها تصب القهوة للرجال.

٢ـ دلة اللقمة. وهي أكبر من دلة الزل قليلاً. وهـي التـي تطبـخ فيها طبخة البن بعد حمسه وطحنه أو دقه.

٣ـ المصفاة. وهي أكبـر مـن الاثنتيـن السابقتيـن. وفيهـا تجمـع بقايا القهوة وتغلى أكثر من مرة في اليوم والليلة.

أنواع الدلال المستعملة للقهوة:

١ـ الدلة الحساوية «سعودية».

٢ـ الدلة البغدادية «عراقية».

٣ـ دلة رسلان «شامية».

وهذه الأنواع الثلاثة مستعملـة فـي المملكـة العربيـة السعوديـة على نطاق واسع.

---

(١) جريدة المسائيـة العـدد ١٠٠٦ إعـداد الأستـاذ أحمـد بـن مساعـد الوشمي.

٤ـ الدلة القرشية «صناعة مكة المكرمة».
٥ـ دلة «راعي القصر» تنتشر في حائل.

المحماسة ـ أنواعها:

١ـ المحماسة الحساوية.
٢ـ محماسة القطيف.
٣ـ محماسة حائل.
٤ـ محماسة بلاد غامد وزهران.
٥ـ محماسة نجران.

النجر: «الهاون». مصنوع من النحاس، مستورد من مصر والشام والعراق.

نجر الخشب، الطاحونة، المبرِّد، الفناجين، الصينية، إبريق الماء، محراك القهوة، اللثامة أو الليفة وهي ليفة نظيفة توضع في فم الدلة تحبس ما طفا من قشر الهيل لئلا ليخرج إلى الفنجان عند صب القهوة.

القهوة الحموية:

إذا تكلمنا عن القهوة الحموية، فكأننا تكلمنا عن القهوة الشامية، لأن مدينة حماة أكثر مدن سورية تعاملاً مع البادية ومع التراث ومع العادات العربية الأصيلة.

وأدوات القهوة عندنا في مدينتنا حماه، وفي مضافتنا، هي نفسها التي عرفناها في القهوة السعودية بما فيه نجر الخشب أو المهباش.

المهباش:

وهو من الخشب القوي، وأجوده عندنا ما كان من خشب البلعاس المشهور الذي تنبت أشجاره على جبال البلعاس شرقي سورية، وهو خش صلب، والمهباش منه له رنين متميز، وكنا إلى عهد قريب نسمع رنين المهباش في الإذاعة الأردنية. والمهباش كتلة من الخشب أسطوانية الشكل ذات حفرة أسطوانية عمقها حوالي ١٧سم وقطرها ١٠سم. ومحيط المهباش دائري قطره حوالي ٣٥سم وارتفاعه ٤٥سم والمحيط الخارجي مفرّض ومزين بنقوش بديعة مطعمة أحياناً بالنحاس أو الألمنيوم، وقد يكون لفم المهباش غطاء من النحاس أو الألمنيوم على شكل طوق للزينة ولحماية فم المهباش من التآكل. وللمهباش يد أسطوانية طولها ٥٠ سم وقطرها ٧ سم يكون موضع قبضة اليد في وسطها أملس، وباقي جسم اليد مفرّض ومزّين، وينتهي طرف الدق بتحززات حتى يكسر حبات القهوة المحمّصة وينعّمها.

وطريقة إعداد القهوة عندنا أن تحمص حبات القهوة في المحماسة، وتختلف طريقة التحميص جزئياً بين البيوتات الحموية في مضافاتها، فبعضهم يحمص القهوة كيفما اتفق، بينما كان والدي رحمه الله يعنى بإعداد القهوة عناية فائقة تستغرق من وقته من بعد صلاة العصر إلى أذان المغرب في الأيام العادية. وكان في أثناء تحميص القهوة بالمحماسة يقلّب حبات القهوة حبة حبة تقريباً، وهو يترنم بشعر البادية الشبيه بالشعر النبطي في المملكة العربية السعودية، ثم يجمع حبات القهوة في المحماسة قُبيل انتهاء التحميص لتتعرق بعد أن يهدى نارها وبعد عدة دقائق يكون التحميص قد تم، فيفرغها بالمبرِّد، وبعد دقائق، يأخذ بكفه قبضة منها ويفرغها بالمهباش ويدقها على إيقاعات تثير في الإحساس الطرب، وتبعث على تجديد الحركة والنشاط الجسمي والنفسي. وتكون الدلة الكبيرة على النار وفيها القهوة القديمة «التشريية» ثم تصفى قهوة التشريية في دلة أصغر منها وتلقم لها القهوة الجديدة، وتترك على النار تغلي وبين الفينة والفينة يتناول بالملعقة والفنجان الرغوة التي تطفو على وجه الدلة في أثناء الغليان، وتغسل الملعقة في كل مرة. وقبيل نضج القهوة تكسر حبات الهيل وتضاف إلى القهوة ثم تغلى الدلة غلوة أو غلوتين ثم تنزَّل الدلة عن النار لأن زيادة غلي الهيل مع القهوة يكسب مذاقها مرارة

غير مستساغة.

وكنت بين يدي والدي رحمه الله في إعداد القهوة، وكنت أنتظر ساعة دق القهوة انتظاراً. ولم أسمع في حياتي كإيقاع مهباش أبي رحمه الله تعالى رحمة واسعة وأسكنه الفردوس الأعلى في الجنة، ولم أكن أظن تلك الأيام أن هذه اللحظات النشوى ستبقى ذكرى متميزة في شريط انطباعات حياتي، ولم أكن أظن في تلك الأيام في عهود الصبا أنني سأصبح شاعراً أذكر المهباش راثياً. فقد فجرت وفاة والدي شاعريتي فقلت أول قصيدة بعنوان «العميد الفقيد» ضمنتها ديواني الأول «لحن الجراح» ذكرت فيها مهباش والدي:

وترنم المهباش جوداً إنه
طَرِبٌ كما في سالف الأنداء
أيام يطربه أبي في محفل
شم الأنوف بعزة قعساء
وقد انتشى الجمع الكريم مباركاً
بدوام طيب القهوة السمراء

ومن اللطائف أنه كان عندي ضيف من أصدقائي الذين يحبون التراث فبعد أن تناولنا الغداء قدمت الطست النحاسي والإبريق النحاسي الأثري لأصب على يديه الماء لأنني

أعرف أنه يفضل هذه الأثريات، وفي أثناء ما كنت أصب الماء على يديه توقف وطلب إلي أن يؤجل تغسيل يديه، فقلت: مالك ياأخي؟. فقال: أحب أن أستمع إلى المهباش قبل أن تنتهي الدقائق المعدودة ـ ظاناً أنها الإذاعة الأردنية ـ فقلت: هذا أبي. فهش وبش وتبسم وترنم.

قهوة اليوم:

تتهادى على مسرح نفسي تلك الرؤى فأقول: منذا الذي يعطي في أيامنا هذه من وقته كل هذه الساعات يوميا؟ لقد التغى المهباش وحلت محله المطحنة، والتفت المحماسة وحل محلها التحميص الآلي، ولا يعرف إنسان اليوم أيشرب قهوة أم يشرب نقوع النخالة المحمصة؟ أم الخبز المجفف المطحون الذي تلفظه الأفران؟ هذا بالنسبة للقهوة الجاهزة.

وكم قد سمعنا عن جداتنا عليهن رحمه الله أن في آخر الزمان لا يعود السكر سكراً كالذي كان، ولا يبقى الملح ملحاً.... فظننا يوم كنا صغاراً أن الأشياء تفقد خصائصها بذاتها، ولم نكن نعرف شيئاً لسمه الغش لأننا لم نكن نراه في حياتنا. وآخر نكتة في هذا الباب أن امرأة كانت تبيع الحليب، وذات صباح، وقبل أن تحمل القدر إلى السوق لتبيع الحليب

كشفت الغطاء فإذا الماء في القدر، فضربت صدرها بجامع قبضتيها وقالت: نسيت أضيف الحليب إلى الماء.

ولقد تغير مذاق الأطعمة عامة بين الماضي والحاضر، فكان الناس يطبخون على نار الحطب فيكتسب الطعام من رائحة الغابات وعطر الصنوبر وعبير الأزهار، أما طعامه اليوم فقد أصبح بلا طعم، ولا نكهة، وحتى هذه الأطعمة الدجاج والبيض واللحم والسمك فقدت زكاء طعمها الذي كان لها قبلاً، بل وحتى الفاكهة والخضار... أفتكون القهوة نشازاً لا تتأثر بالغزو الحضاري؟. إن الحضارة أعطتنا الكثير الكثير ولكن أيضاً كما أعطت أخذت، وربما يكون أخذها موازياً عطاءها إن لم يزد عنه، ويكفي أن يسمى هذا العصر بعصر «القلق»، هذه التسمية الرهيبة على إحساس الانسان لا تفيها الحضارة حقها مهما قدمت إليه من وسائل الرفاه.

الشـاي:

أما الشاي، فإنني لم أثقف صنعته، ولست أُحْرَم كأساً من الشاي المثقف «شاي الشعراء».

وكما يتفاوت الناس في إعداد القهوة يتفاوتون أيضاً في إعداد الشاي، فمنهم من يحتفي بالشاي احتفاء، فيهيؤون إبريقه وكاساته، وسجادة الإبريق وطربوشه ليتخمّر ويتعتق نسبياً، ثم

يصبونه في كاساته الأنيقة المذهَّبة، وكل كأس لها ملعقة لطيفة ذهبية أو فضية اللون براقة، منمنمة مزركشة مفرَّضة مخرَّمة عليها رسمات ذات أشكال طبيعية كالزهرة أو ذات رسمات هندسية... وإن تصادم صوت الملاعق بجدران كأس الزجاج ليحدث رنيناً ذا إيحاء محبب والمضافة عامرة بالسمار، مما ينشر جواً محبباً، وسروراً مورق النظرات، مزهر الألطاف، يانع الإحساس، ريان العبير.

طُرْفه:

ومما يذكر بمناسبة تذويب السكر بكأس الشاي، أن ضابطين كبيرين كل منهما برتبة جنرال أحدهما ألماني والآخر بريطاني، اجتمعا في مقهى على طاولة واحدة، في أثناء الحرب العالمية الثانية في إحدى الدول الأوربية ولما قدم النادل كئس الشاي لكل من الضابطين أخذ أحدهما يحرك الملعقة بعكس حركة الآخر. والسؤال الآن:

لماذا كان كل من الجنرالين يحرك الملقعة بحركة معاكسة؟.

وكما تختلف طريقة تحضير الشاي تختلف أيضاً أمزجة شاربيه، فبعضهم يحضِّر الشاي ثقيلاً جداً ثم يصبه في كأس إلى منتصفها... ثم يصب فوقه الماء الحار،.. وللناس فيما يشربون مذاهب.

وقد سمعت أن في بعض البلدان - وأظنها الهند - قوماً يجتمعون في مكان مخصص لشرب الشاي يتواعدون ليحضروا مجتمعين. فإذا كان الإنسان يذهب إلى الشاي في بعض المناطق، فإن الشاي هو الذي يأتي إلى الإنسان في بعض المناطق الأخرى.

وقد أقيمت المقاهي لشرب القهوة والشاي، وفي هذه الأماكن من المفاسد ما فيها، ومر عهد على الوطن العربي كان شرب القهوة محرماً لذاته، وكانت السلطة في عهد الأتراك وظفت عيوناً (مخابرات) أطلقت عليهم اسم (الشمامين) يأخذون من يشرب القهوة. ثم أصبحت القهوة محرمة لا لذاتها، وإنما لما يحصل في مجالسها من غيبة ونميمة ونهش في أعراض الناس. وطبعاً يكون هذا في المقاهي، وروادها العاطلون عن العمل المتدنون ثقافياً... إضافة الى ضعف الوازع الديني لديهم، أما المضافات فهي مركز الكرم بكل ما تحتوي هذه الكلمة من معنى. وإن أمتع ما في حديث المضافة الأخبار، وأشوقها أخبار البادية، يرويها الراوي وفنجان القهوة يدور، والدلة طيلة السهرة كلما فترت حرارتها صافحت الجمر في (المنقل) فتنفض رأسها يقظة وتحمى من جديد لتنشيط السمار، والملقط يضم الجمرة إلى الجمرة، والجمر حول الدلة كعقد من عقيق تجمعت جماناته وتراكب بعضها

فوق بعض.

ويطل الشاي مشعشعاً متفقداً طارداً أطياف الكرى عن أعين السمار، وما يزال هذان الحارسان القهوة والشاي يحرسان حقول الأحاسيس أن يتسلل إليها (لص السمر)، ويقدمان - متنافسين - الهدايا والألطاف على طبق من البهجة تارة والنشوة تارة أخرى.

وفي مجالس الأنس حينما يُسقى الشارب كأساً ويقدم إليه الثانية يقول متندراً: الشاي كأس فإن زاد فلا بأس. ويتناوله مسروراً وإن قدم الكأس الثالثة ارتشفه قائلاً: الشاي كأسان، وإن زاد فإحسان.

جو المضافات:

كانت المضافات عندنا تشبه الصالونات الأدبية غير المبرمجة في المملكة العربية السعودية؛ ففي الرياض بعض الصالونات الأدبية التي تضع خطة مبرمجة تسير وفقها، من إلقاء محاضرات ونحوها. وبعض الصالونات لا تنعقد إلا بمناسبة محاضرة يلقيها مفكر محلي يدور فيها الجدل أو ضيف كبير. وبعضها يعقد دورياً ولا محاضرات ولا برمجة، وإنما هو لقاء أخوي يجري فيه من الأحاديث كل منتخب من حكمة شاردة، وطرفة ونادرة، يستلمح فيه من الأخبار، وتلقى في

ختامه الأشعار. كانت مضافتنا من هذا النوع الأخير تقريباً، على أن أخبار البادية وما يتصل بها كانت تستأثر بالكثير من الأحاديث. وكنت أستمع إليها بشغف بالغ، وقد علمني أهلي الجرأة ودربوني عليها، فقد كانت لي طاولة صغيرة أرتقيها وأخطب من فوق منبري الصغير هذا بعد أن أغذى بالأفكار والأشعار، كان ذلك قبل دخولي المدرسة الابتدائية وإنني ما أزال أحفظ هذا البيت منذ تلك السن:

العلـــــــم فـــــــي السطـــــــــور
يسري إلــــــــــــــــى الصدور

وإن ذاكرتي لتحفظ جيداً طفولتي المبكرة حيث أتذكر ولادة أخي الدكتور محمود وكان عمري ثلاث سنين. كما أتذكر نفسي قبل هذه السن يوم كانت تضمني أمي يرحمها الله إلى صدرها وتهدهد لي بصوتها الحنون بأغنية شعبية ما زلنا نحفظها ونهدهد لأطفالنا بها. وفي علم النفس المعاصر أن الإنسان يتذكر حتى السن الثالثة فقط. وهذا خطأ إذ يمكن للفكر أن يتذكر قبل هذه السن.

كنت في مضافتنا وأنا صغير أعي الكثير مما يلقى من أخبار البادية، وما يتصل بها من أخبار الخيل وأنسابها، والحروب التي اشتعلت بسببها، وكان أبي رحمة الله - فارس

حماة وعلّامتها بأنساب الخيل دون منازع - يروي أخبارها، كنت أسمع منه سبب تسمية بعض الخيل، وكان عندنا فرس «الكروش» فلما روى أبي سبب هذه التسمية أصغيت أكثر. وكان يغذي أحاديث مضافتنا ورود شركائنا عرب العنزة من البادية فكانت الأحاديث تأخذ طابعاً بدوياً، وقد سمعت الكثير من قصص الكرم عن «ابن هذال» شيخ الشيوخ، وكان يروى في أثناء الحديث من شعر البادية، وهذا الشعر له أصول من بحر الرجز ومثاله:

«يــــا مهيرتـــــي لا تعتبـــــي».

مستفعلـــــــن مستفعلـــــــن

وهذا كما قلنا بمقام الشعر النبطي في المملكة العربية السعودية إن لم أكن مخطئا. وقد نشرت لي بعض الصحف في المملكة العربية السعودية حديثاً قلت فيه: إنني لا أفهم الكثير من ألفاظ الشعر النبطي، ولكنني أحياناً أرى فيه صوراً رائعة. والشيء نفسه يقال عن شعر بادية الشام. ومن هذه الأشعار ما ذكره الكاتب الحموي نزار مؤيد العظم في مسلسلته الرائعة عن عرب الرولة. وأحداث هذا المسلسل فيما أظن منظومة في القصيدة التي مطلعها.

رولا عــــرب قصورهـــم الخيـــام

ومنزلهـــــم حمــــــاة والشآم

وما أشد حنيني ولاسيما في الربيع من كل عام إلى بادية تدمر.

إلى بادية تدمر:

تتهادى على مدارج نفسي ملاعب الصبا ومراتع الشباب حينما سافرت مع والدي رحمه الله إلى تدمر، وما أحلى تلك الذكرى وما أغنى رؤاها والبراري تنشر علينا أنفاس الربيع على طول الطريق. وصلنا تدمر، ونزلنا على وجيه فيها من أصدقاء أبي رحمه الله حيث راح يسأل مضيفه عن العربان وأخبارها وخيولها ونتاجها وسباقاتها... وكنت أسأله عن العلماء والأدباء والشعراء والخطباء في تدمر وما حولها.

وأهل تدمر كأنما يحسون أصالتهم، فتراهم تراثيين مثاليين من كرم وشهامة، وعلى رأيي ابن خلدون أن البادية أقرب إلى الخير من الحاضرة.

وتدمر واحة في قلب الصحراء، يطالع النخيل من دخل إليها، كما تبدو آثارها بأعمدتها في خرائبها وأنا أمشي بين أعمدة مصطفة عن يمين وشمال، وقرأت عن هذه الأعمدة أنها كانت شارعاً يبلغ طوله ٣٠كم، وهو الشارع الرئيسي بالمدينة، وكانت أرضه مرصوفة بالحجارة الملساء، وكان على جانبي

هذا الشارع سوق المدينة، وهذه الآثار تشبه آثار مدينة أفاميا غربي مدينتي حماة عند قرية «قلعة المضيق» وقد احتلت أفاميا من قبل الصليبيين، ولكن استعيدت، حصل هذا عدة مرات في محاولات مستميتة يائسة ليحتلوا مدينة حماة ولكن التاريخ لم يسجل لهم هذا الشرف والحمد لله، بل ردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا. وقد بنى المسلمون قلعة المضيق قريبة من أفاميا ليضيقوا على الصليبيين لما كانوا فيها.

وشرقي قلعة المضيق وقريب منها بلدة خان شيخون التي ظننت أن عائلتي آل الخاني نسبة إليها. وفي هذه البلدة قبيلتنا. ولكن الواقع، أن أصولنا من مدينة حلب، وأن قاسماً الخاني مفتي حلب جدي العاشر، وربما كانت نسبةالخاني إلى كلمة خان بمعنى الملك في بعض اللغات الشرقية، وربما كان أحمد الخاني أمير شعراء الأكراد جد قاسم الخاني. والمسألة لم أتفرغ للتحقيق فيها، وقد سافر مصطفى الخاني الكبير حفيد قاسم الخاني هذا من حلب إلى خان شيخون واستقر فيها، ومن أحفاده محمد وأحمد الذي سافر إلى حماة واستقر فيها، وأما شقيقه محمد فقد تابع رحلته من حماة إلى دمشق واستقر فيها. وآل الخاني في دمشق أصحاب شعر وأدب وزهد وعلم كثير، وهم في حماة أصحاب خيل وتغلب عليهم صفة الفروسية. ولا أدري هل كانت خان شيخون معاصرة لجارتها أفاميا البلدة

الرومانية العريقة؟ أم لا؟ وقد رأيت في أفاميا في أثناء تجوالي فيها ما رأيت في تدمر. وما يشبهه في نظام العمران وارتفاع الأعمدة، وشكل تيجانها ومقرنصاتها، وقد رأيت على جدار الصخر الأثري في أفاميا منظر فارس يطعن برمحه أفعى ضخمة سال منها الدم، واللون الأحمر ما يزال جديداً منذ عهد الرومان، هذا ما قاله لي ابن عمي أحمد بن حسن الخاني خبير الآثار في متحف حماه، وقد اكتشفوا في هذه الآثار فيما اكتشفوا لوحة من الفسيفساء - وهي حجارة صغيرة نفيسة جداً - رأيتها على أرض متحف حماة تصور فرقة موسيقية تعزف على آلات ذلك الزمان، منها آلة وترية تشبه قيثارة آخيل بطل حروب طروادة كما صورها هوميروس في شعره، وكما نقلها المترجم سليمان البستاني. وتصور لوحة الفسيفساء آلة تعزف على الماء، ولما سألت ابن عمي عن طريقة استعمالها قال: إن هذا الجسم الكبير يحمل ما يشبه الكاسات المعدنية ولكنها على شكل (القمع) تملأ هذا الكاسات بالماء أو يصب فيها الماء إلى مستوى معين وقعرها حساس ولما ينفخ في هذا البوق يمر الهواء المضغوط ويحدث اهتزازات، وهناك صمامات للتحكم والتنغيم... الخ. ورأيت في اللوحة آلات موسيقية غير معروفة في عصرنا هذا. وتملكتني الدهشة أن رأيت اللوحة كاملة، فشرح لي ابن عمي طريقة نقلها دون أن تتشوة فقال:

نكشف عن اللوحة، وتنظف جيداً، ثم نأتي بقطعة قماش صفيق ونطليها بمادة لاصقة، ثم نغطي بالقماش اللوحة ونمرر أيدينا فوقها ليلتصق القماش جيداً، ثم نقلع القماش وقد التصقت به حبات الفسيفساء، ثم ننقل هذه اللوحة بعناية إلى المكان المعد لها بالإسمنت ومواد أخرى، وبعد أن يمسك الإسمنت اللوحة تزال قطعة القماش فنحصل على اللوحة كما وجدناها. ثم تنظف وتلمع. وبهذه الطريقة نكون قد نقلنا التاريخ الى الإنسان.

إن التشابه بل استطيع أن أقول: التناظر واضح بين أفاميا وتدمر فخطر لبالي أن المهندس واحد، أو أن المخطط واحد. وتجولت في أفاميا. وقد وصفها في شعره صديقنا فقيد مدرسة بدر الشعرية أخي الشاعر عبدالقادر حداد رحمه الله. شدهت لأعمدة أفاميا وتدمر، ولا أدري لماذا سادت خرافة قديمة تقول: إن الجن هم الذين بنوا مدينة تدمر، وقد أفرز النابغة الذبياني خرافة عصره هذه بقوله في معلقته التي مطلعها:

يـــا داريـــة بالعليــــاء فالسنـــــد

أقــوت وطـــال عليهـــا سالـــف الأبـــد

إلى أن يقول في ممدوحه:

ولا أرى فاعــلاً فــي النـــاس يشبهـــه
ولا أحـــاشي مـــن الأقـــوام مـــن أحـــد
إلا سليمـــــان إذ قـــال الإلـــــه لــــه
قــم فــي البريــة فاحددهــا عـــن الفَنَــد
وخــيِّسِ الجـــن إنـــي قـــد أذنتُ لهـــم
يبنــــون تدمــــر بالصُّفَّـــاح والعمـــد

وأنــا أسير بين آثـار تدمـر انتابنـي شعـور عميـق فيـه الهيبـة والجلال، وكأنما انبعث التاريخ أمام ناظري عياناً، فطوي حجاب الزمان، وخلت نفسي أعـود إلـى عصر فيـه الجمل والقوافل، والخيـول والبغــال والحميـر، والسيـوف والرمـاح، والنبـال والدروع والتروس، والخناجر والعصا والحجر والمقلاع... صهيل ولغـط ورغـاء وثغـاء... وجلبـة وعربـات فارغـة وملأى...

زنوبيا ملكة تدمر:

وأنا فـي جلبـة السوق، سوق تدمـر الرائـع، وهـذا الحـوذيُّ يمسك بعنان خيول العربة الملكية، والجند على أهبة الاستعداد وهم مصطفّون على جانبي الطريق بكـامل أسلحتهـم الحربيـة، وتمر العربات أمام عربة زنوبيا، ثم تظهـر عربـة الملكـة وقـد

صفحت بالذهب الإبريز، كما نضدت قبة العربة بالديباج الدمشقي والحرير الكشميري واليماني وجعلت مادتها وحشو جوفها القباطي المصرية، أما منصة العربة وعجلاتها فقد كانت من خشب الآبنوس المطعم بالفضة والذهب والعاج، وزينت أريكة الملكة زنوبيا بالزرياب ورصعت الأريكة بحسان اللآلي والجواهر. وإلى جانب الملكة ابنها وهب اللات وهو فتى فيه سمرة الصحراء الجميلة المهيبة، وفي محياه إباؤها الحاد الصارم وكرمها الذي سارت بأحاديثه الركبان، وخلف العربة سارت مواكب الخيول التي استقدموها من حماة لشهرة خيولها.

ووقفت شامخاً أنظر. وما إن رأتني زنوبيا حتى أشارت فوقفت المركبة. التفتت إلى قائله:

– هيه أيها الغريب، ماذا تفعل هنا؟
– أنا غريب هنا؟ افهمي أيتها المتعجرفة أن الكون كله لي لأنني مسلم.
– فغرت ثغرها مشدوهة ثم قالت: ماذا تفعل هنا؟
– أنا ماذا أفعل هنا؟ أم أنت ماذا هنا تفعلين؟

نزلت بلباسها العسكري العربي وقالت:

– بحق السماء، قل لي من أنت؟.

- أنا مسلم يعيش في العصر الحديث في القرن العشرين، فماذا تريدين؟.

وضعت رأسها بين كفيها وصارت تبكي وتقول:

- أريد أن أثأر، زوجي أذينه سأثأر لك، فكن قرير العين.

- ألهذا تبكين؟

- أريد أن أبني دولة عربية حرة لا تخضع للاستعمار الروماني.

- وهل تحسّين أنك تستطيعين؟.

- أشك في ذلك.

- بماذا ؟

- لأن العربي في قلب الصحراء غير العربي في الحواضر.

- لم أفهم.

- أزيدك وضوحاً: العربي في قلب الجزيرة العربية حر، أما العربي في دولة الغساسنة والمناذرة فهو «مدجَّن».

- وما علاقة هذا الحديث بموضوعنا؟

- صرخت في وجهي: متى تفهم؟.

- أتظنين أن حديث الانفعال وسيلة إفهام؟

- طيب فليكن حوارنا هادئاً، أريد أن أكسر طوق العبودية عن عنق هذا الشعب.

- هل تحسين أنك تستطيعين ذلك؟

أجهشت في البكاء وهي تقول:

- إنني امرأة، ولكن سوف أثبت للتاريخ فعل المرأة في ميدان يظن الرجال أنهم وحدهم أهله، أو أنهم هم أقدر عليه.

- هذا كل ما تطمحين إليه؟ إثبات مقدرة (الأنثى؟) إنني أشهد لك بذلك، ويشهد لك التاريخ معي. ثم ماذا بعد؟.

- ربما كان لي أهداف أو نوازع لا أريد أن أصرح بها، ولكن.

- ولكن ماذا يا زنوبيا ؟ ولماذا تصمتين ؟

- ولكن غلطتي جنت علي؟.

- أية غلطة تعنين؟ جذيمة؟.

- وهل لي غيرها؟.

- الغلط أنك وثقت بعدوي.

- الناس يتكرر منها الخطأ، وخطأتي لم تتكرر مرتين.

- قال الرواة: إن جذيمة استشار قصيراً في المسير إليك فمنعه وقال:

«خطب يسير في خطب كبير» وقد صنفه الميداني في كتابه، وأورد في قصته ٢٣ مثلاً. فهل هذه الأمثال صحيحة؟.

- وهل تصدق كل ما يقال؟. ولكن لماذا غيرت الحديث؟ أمللت مني؟.

- نعود إلى حديثنا: هل وثقت بقصير بن سعد اللخمي وزير جذيمة؟.

- من نكد حظي وسوء طالعي وتفاهة عقلي أن أقول: نعم. وقد اكتشفت أنه لا يوجد في الكون إنسان يوثق به، ولكن بعد فوات الأوان.
- صح النوم أيتها الملكة الجليلة.
- أهزء أم سخرية؟.
- لا هذا ولا ذاك. فقد يثق الإنسان بابن عمه الجوار وهو أفعى بسبعة رؤوس، وقد يثق بمن يأتي من وراء الضباب ولم يكن رآه قط.
- ربما يكون سمع عنه فأطمأن إليه.
- السماع؟! هذا كثير، مكارم أخلاق والتزام بالكلمة ووفاء بالعهود ومساعدة الجوار كما قال الشاعر:

داري ودار الجـــــار واحـــــــدة
وإليــــه قبلـــــي تنـــزل القـــــدر

- ياسلام..
- ماذا كان طموحك لولم تقتلي؟.
- كنت أريد أن أستمتع بعد الثأر بلذائذ الحياة، أنا صحيح ملكة، آمر وأنهى، ولكن ليس هذا كل ما أتمناه في الحياة.
- لماذا تبكين؟
- بل قل: على ماذا تبكين؟
- طيب على ماذا تبكين؟

- على قلبي الضائع.
- أأبحث معك عنه؟
- أين؟
- بين السلاح.
- كلا، فهناك لن تجده.
- إذاً فأين أجد قلبك أيتها الملكة الجليلة؟
- بين القلوب، أريد أن أحب، وأسحق الرومان.
- المعذرة أيتها الملكة الجليلة فليس هذا لك.
- ليس لي أن أحب؟
- بل هذا هو الذي لك وحده.
- والرومان؟.
- ليس لك إلى سحقهم سبيل ولا لغيرك من العرب.
- ماذا تعني؟
- أعني أن العرب لا ينتصرون، ولن ينتصروا.
- كيف تقول هذا الكلام؟
- أقول لك كيف: عرب + إسلام = نصر

عرب - إسلام = هزائم

- كيف تقول هذا وعندكم الجيوش والقوة والعدة والعتاد....؟
- قوتنا على بعضنا فقط. وقد وعد الله النصر لعبيده بقوله:

«ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين»[1] فالعرب بلا إسلام أضيع من الأيتام في مأدبة اللئام، ولا يمكن أن ينتصر العرب أبداً دون إسلام، وأعداؤك الرومان الذين قيدوك بالسلاسل أسيرة لم يحطمهم العرب بل حطمهم العرب المسلمون.

– كيف تقول: إن الرومان أسروني وقيدوني بسلاسل الذهب ؟

– أما قيدك الرومان بسلاسل الذهب وحملوك أسيرة إلى روما؟

– كيف تفتري على التاريخ؟ كيف؟.

– إنني أعرف رواية تقول هذا، وأما الرواية العربية فإنها تقول: إنك بعد حيلة قصير قصدت نفقاً يصل بين تدمر والفرات، فهل هذا صحيح؟.

– نعم.

– إن بين تدمر والفرات مسافة ٢٠٠كم فهل كان هناك نفق بهذا الطول؟.

– نعم.

– وأين يصل هذا النفق؟.

– يصل إلى مدينة فيها أختي.

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٣٩).

- ومن الذي حال بينك وبين النجاة؟.

- عمرو بن عدي ابن أخت جذيمة ومعه قصير، أراد عمرو أن يجللني بالسيف، وكان معي حتفي، سم في خاتمي مصصته وقلت: بيدي لا بيدك عمرو.

- عجيب.

- وما العجيب؟.

- إذاً لم يأسرك الرومان؟.

- أبداً.

- ولماذا يروون عنك هذا؟.

- هذه ساديةُ ما بعد الموت.

- لم أفهم.

- يحبون الجبروت فروجوا هذه الإشاعة، وتبعهم في هذا بعض المؤرخين العرب الذين لا تحقيق لديهم ولا تدقيق، ولكن.

- ولكن ماذا يا زنوبيا؟.

- أتريدينني أن أكون قومياً؟ إنني أفهم العروبة كما فهمها جَدّي رضي الله عنه.

- من جدك رضي الله عنه؟

- جدي خالد بن الوليد رضي الله عنه عندما سمع في اليرموك جندياً يقول:

ما أكثر الروم وأقل العرب! نهره جدي وقال: بل قل: ما أقل الروم وأكثر العرب. ولم يكن العرب آنذاك إلا الصحابة رضوان الله تعالى عليهم والتابعين، فإن كانت العروبة روحها الإسلام فأنا أول تابع لها، وإن كانت العروبة غير هذا فأنا أول من يشهر في وجهها السيف.

- هكذا إذاً؟.

- نعم.

- خالد بن الوليد، هذا الذي شفى صدري من الرومان من داء الكلَب، ولقد عادوا إليكم فما أنتم فاعلون؟.

- أتعنين في زمن صلاح الدين؟.

- في زمن صلاح الدين وفي زمن فساد الدين.

- وداعاً يا شقية.

الحمامات:

تداعت إلى خاطري تلك الرؤى، وتراقصت تلك الصور، وأنا أعبر أشجار النخيل إلى متنزه الحمّامات.

قبل أن أذكر متنزه الحمامات في تدمر أريد أن أوضح مفهوماً وهو أن لفظة (الحمّام) تعني عندنا في الشام مفهوماً يرتبط به النظافة والعطر والمنظر الجميل من نوافير وجداول ماء.... وسأوضح هذا بفكرة عن حماماتنا.

الحمامات في مدينة حماه:

الحمام في مدينة حماة قصر رائع يتكون من ثلاثة أقسام: البَّراني، والوسطاني، والجواني.

البراني: وهو مكان الاستقبال، ويتكون من قاعة واحدة كبيرة لاستقبال أفراد الشعب الذين يودون الاستحمام لقاء أجر معين، حيث يدخل المستحم إلى هذه القاعة الباهرة، يرتفع على محيطها مسطبة تعلو نحو متر، مفروشة بالسجاد والبسط الفاخرة، والوسائد والمساند، وفي وسط هذه القاعة بركة من الحجر المرمر الأحمر أو السكري، وفي وسط البركة عمودها المرمري الذي ينبع منه الماء الدائم الجريان، لأن قنوات المياه الجارية من نهر العاصي دائمة الجريان ما دامت النواعير تدور منذ آلاف السنين، والمياه تتدفق فتصل إلى أكثر بيوتات المدينة وحماماتها، وقد يوضع آنية وفيها الزهر على حافَة البركة، مما ينشر جو السرور، والعبير يصافح العين والإحساس قبل أن يصافح الأنوف. وأرض القاعة مفروشة بالرخام الأبيض الكبير المربع، وضلع البلاطة نصف متر، يفصل بين البلاطة وأختها شريط من البلاط الأسود كالكحل في العين يزيد المنظر جمالاً، ويضفي على الإحساس رونقاً أخاذا. أما سقف القاعة فمرتفع عادة

بارتفاع دورين أو ثلاثة أدوار من البناء الحديث، تتدلى من سقفه سلسلة معدنية مذهبة كجدائل الحسناء الشقراء، تحمل ثريا ضخمة يحمل كل ضلع من أضلاعها نجم الصباح. وتزين جدران القاعة الستائر النفيسة والمناظر الرائعة الهادئة خلف الستائر، فإذا أزيحت وربطت بحمالاتها إلى جانبها وهي حلقات ذهبية ظهر منظر البحر والسفين على الجدار، والسماء الزرقاء، والطيور المغردة وكأنك تسمع تغيرها وتحس كأن نسمات البحر الخفيفة اللطيفة تداعب وجنتيك وأهداب جفنيك، أما نوافذ القاعة فمزدانة بالزجاج الملون البديع الذي يعكس ألوان الطاووس الذكر وأطياف السماء.

وبعد أن يخلع المستحم ملابسه يكون قيّم الحمام قد هيأ له إزاراً يرتديه ثم يدخل بالقبقاب الخشبي إلى الوسطاني، ويبدو أن القبقاب أكثر تماسكاً مع أرض الحمام ومثاله قبقاب دريد لحّام في مسلسلته «حمام الهنا» ومن عاف لبس القبقاب وسار حافياً فكثيراً ما يتعرض للانزلاق ربما يسبب له رضوضاً، فالأرض ملساء وهي ليست جافة. وكثيراً ما يقع الشباب الطائش الذي يستهتر بالانتباه لنفسه، وربما شج رأسه وسال منه الدم إثر سقوط انزلاقي سيء وبعد أن يرتدي الإزار يدخل إلى الوسطاني كأنما هو محرم للعمرة أو الحج.

الوسطاني:

وهو قاعة أصغر من قاعة البراني، وقد أعدت ليتكيف المستحم مع الجو الداخلي الحار الذي يكون في الجواني.

الجواني:

وهو مكان الاستحمام ويتكون من قاعة كبيرة على محيطها المقاصير - مفردها مقصورة - وعددها متفاوت بين ٥-١٠، وهي غرف صغيرة وسطي أبعادها ٢ × ٣، ولا باب لها، وفي صدر المقصورة جرن رخامي فوقه صنبور ماء حار وآخر بارد ليعدل المستحم الماء على مزاجه، وفي الجواني مسطبة يستريح عليها الداخل قبل الاستحمام، أو في اثنائه أو بعده، وفي وسط القاعة (بلاط النار) وهو رخام يسخن من تحت الأرض حيث يوقد تحته في (القمّيم) وغالباً ما يكون الوقود الفرث حيث يجمعه عامل الحمام. ولما يسخن البلاط إلى الحد الذي يطاق يجلس فوقه من أراد التعرق الغزير، فيطرد الجسم بهذا التعرق أحماضه وسمومه. وفي الحمام مكيّس يفرّك جسم الزبون أو المستحم، وقد أطلعنا بديع الزمان الهمذاني في مقاماته أنه كان في حمامات بغداد من المكيسين من يتنافسون على كسب الزبون حيث يضعون

طينة على رأس الداخل، ومن سبق إليه من المكيسين سبق إلى أجره. وهذه الطريقة لم أشاهدها في حمامات بغداد حينما زرتها عام ١٩٧٠م عندما قبلت في جامعة بغداد في الماجستير ولقد أرسل إلى بذلك الدكتور إبراهيم السامرائي حفظه الله وكان رئيساً لقسم اللغة العربية آنذاك، ولما وجدت الشرط التفرع تركت. ولم أجد في حمامات دمشق هذه الطريقة ولا في حماماتنا في حماة.

وبعد تكييس الزبون يستحم بالماء والصابون بعد أن سلخ عنه الوسخ والجلد المتفلس، وبهذا يكون الجلد قد تفتحت مساماته، ويضيف المستحم عادة مادة تسمى البيلون وهو غضار من نوع خاص أو صنعة خاصة يصنع محلياً في البيوت وأجود منه البيلون الحلبي وهذا يباع، ولهذا البيلون أو ذاك رائحة ورد وطيب، يضعه المستحم على رأسه بعد أن يذيبه في الماء فيذهب ماء البيلون بقشرة جلد الرأس أفضل من أي (شامبو) ولا مضاعفات له، وبعد الاستحمام يكون الجلد قد تشرب العطر فيبقى الإنسان أياماً عطري الرائحة. وبعد الانتهاء من الاستحمام ينادي القيم فيأتي بالمناشف الجافة فيرتديها ويخرج إلى الوسطاني، ثم يغير المناشف ويرتدي غيرها جافة وجديدة، ويخرج إلى البراني ويتمدد للراحة، ثم يأتيه فنجان القهوة تتراقص أبخرتها بروائحها العطرية ذات

النكهة المنعشة.

وتخصص الحمام بعض الأيام للنساء، وبعض الحمامات تخصص من الصباح إلى منتصف النهار للرجال والنصف الثاني من النهار للنساء. وفي العادة لا تذهب المرأة إلى الحمام إلا كل شهر تقريباً، ومعها أولادها ومعهم الطعام كالزيت والزعتر والمجدرة والحامض اللفت الحمصي والبرتقال، وبعد الحمام تأتي مروحة اليد وهي من سعف النخل أو من قشره أو من القش حيث تهش إلى الفتاة وتداعب بنسماتها اللطيفة خدودها الموردة وهي تقول لها : نعيماً.

حمامات تدمر:

على يمين الداخل إلى تدمر تقع حماماتها التي ذهبتَ إليها، هناك مدخل لا باب له وكأنه صخر منحوت، ونزلت السلم الحجري ثلاث درجات أو أربع، وعلى الحمام قيم يأخذ أجراً ويقدم إزار الاستحمام، نزلت إلى الماء فإذا هو نفق يغمره الماء الجاري إلى ارتفاع مالا يقل عن متر ونصف وكأنه نهر، والنفق لا آخر له من جهة الغرب، والماء فاتر في الصيف الحار وفيه رائحة كبريتية، وخطر لي وأنا أستحم أن أن هذا ربما كان هو نفق زنوبيا، وسقف النفق مقوس كأنه

حفر صناعي يشكل نصف دائرة قطرها حوالي ستة أمتار، ولم أحقق هذه المسألة تاريخياً، وعدت إلى المدينة وأهلها كرماء ولهم حفاوة خاصة بالقهوة.

مضارب الخيام:

ثم توجهنا إلى مضارب الخيام في البادية شمالي تدمر تبعد عن البلد حوالي ٢٠ كلم في عمق الصحراء، ورأيت على الطريق آباراً لتجمع مياه السماء، وليست نبعاً، وقيل لنا : إنها آبار رومانية على طول الطريق الذي نسير فيه، وبشكل منظم بعد كل مسافة نجد بئراً، ولكن لا حماية لها كأن يقام عليها حجارة تحمي من الوقوع فيها. وتداعت إلى فكري أخبار الأنباط الذي كانوا يحاربون أعداءهم بالعطش، فقد روى لنا التاريخ أن جيشاً رومانياً قصد الأنباط في الأردن ففر أمامه الجيش النبطي إلى الصحراء فتعقبه الرومان، وتوغل الأنباط فهلك الجيش الروماني عطشاً والماء ربما كان تحت قدميه وهو لا يدري، ذلك أن الأنباط كانوا يحفرون آباراً في الصخر ثم يغطونها ويحسنون تمويهها. تراءت لنا مضارب الخيام من بعيد، وكنا نتنسم هواء البادية في الربيع فنشعر كأنه يستل منا الفتور والضعف ويعوضنا بدلاً عنه أكسير الحياة والقوة

والحيوية واعتدال المزاج ونحن نسير والطيور تسلم علينا، والأزهار تهش إلينا، وكأن الفراش يهوم حولنا ويدوّم فوق رؤوسنا، والأغنام والجداء وأنواع الحجل... تفجر بالحياة منقطع النظير، وبيوتات الشَّعر هنا وهناك إلى أن وصلنا.

في بيت الشيخ جزاع الهودج:

كان من عادة آل الخاني قديماً أن يخرجوا إلى تدمر أو إلى شركائهم العربان حول تدمر في ربيع كل عام، يمضون شهراً هناك يرعون مصالحهم يتفقدون الحلال من أغنام وخيول وجمال.. كان هذا قبل أن آتي إلى الدنيا.. ولكن تغيرت الأحوال وتبدلت، وانقطع أهلي عن البادية، ثم حن والدي رحمه الله إلى البادية وكان ما يزال لنا فيها بقية صحبة، فاصطحبني معه، ولما وصلنا مضارب الخيام تقدم إلينا شيخ وقور وعانق والدي مرحباً.. وانتظم المجلس ودارت القهوة العربية الأصيلة، واسترحنا بعد عناء. ثم جاء الطعام لا أردي كيف يأكل البدو الجمر، إن اللحم كالجمر، ومع ذلك فهم يزدردونه سائغاً كأنما أفواههم مناقير النعام. وتداعت إلى خاطري قصة الصبي عند البدو حين حضر الطعام، والناس تأكل والصبي يبكي، فقالوا: ما يبكيك ؟ فقال : الطعام حار.

فقالوا له : انتظر حتى يبرد فقال : ولكنكم لا تنتظـرون. وبتنـا تلك الليلـة مجهديـن، وكـانت رئـة الخزامـى تنفحنـا بأنفاسهـا العطرية ومعها نباتات الصحراء السحريـة، إن الصحـرا تعلـم فيما تعلمه الحب والصفاء والخروج عن المقتنى للآخرين عن طيب نفس، تعلم الأريحية والنخوة وحب الجار، ولأمر مـا قـد جـعل الله بـلاد العـرب صحـراء، امتـداد فـي الأفـق، إزالـة الحواجز بين النفس وبين مظاهر الطبيعة حيث يتجلى الجمال الإلهي على النفس صافياً بلا حجاب، فيسكب فيهـا مـا يسكب ولا سيما فـي البكـور، ولـيل الصحـراء يلهـم النـفس المناجـاة، تتكلم الـروح دون حـروف، مناجـاة مـع السمـاء، مـع النجـوم، تسبح النـفس فـي الملكـوت شفـافـة شفـافيـة الهـواء والضيـاء، نقيـة نقاء السمـاء فـي سعـد السعـود ممتـدة لا تـحجبهـا جـدران، ولا يعوقها عن سياحتها عائق من عوائق المدينة، هـذا مـا شعـرت به وأنا أحاول الكرى، أدعـوه فـلا يستجيب، وأنـا أسمـع وقـع الأقـدام ويبـدو أن الفتيـات البدويـات قـدرن شعـوري فأعطينـنـي فرصة للراحة ولما أرقت تلك الليلة ثقلت عن القيام إلـى صلاة الصبـح فـي الـوقت الـذي كنت أقـوم فيـه وقت الجماعـة، فتـوضأت ولـم أسمـع الأذان، فـأذنت ثـم استقـظ مـن استيقـظ وصلينا، وكان رأسي ثقيلاً نسبياً، فلم آخذ في ليلتي قسطي من النوم، غير أن سحر البكور جاذبني شعوري حتى غلب علـي،

ولا أروع من سحر بكور الصحراء ولا سيما في الربيع الممرع، فنشطت نفسي لاداء تمرين من تمارين‍اتي الرياضية، فأنا بطل حماة بألعاب القوى، وأحافظ على تمريناتي حتى اليوم وإن قلت في المدة الأخيرة، وقمت بتمرينات خفيفة وعدت لأجد القهوة والتمر والحليب، فكانت الصبايا حول البيت يذهبن ويجئن، يدخلن إلى بيت الشَّعر ويخرجن. قال لي والدي : يا حج احمد، وهذا لقب كنت أسمعه من والدي رحمه الله منذ كنت صغيراً، وإذا ناداني باسمي أعرف أنه عاتب علي. قلت : نعم يا أبي قال : الخيل غير موجودة. قال مضيفنا سيذهبون الآن ليتزودوا بالماء من الحسو، كأنه يستشيرني في الذهاب معهن. قلت في نفسي : وما علاقتي بالموضوع؟

فأعاد علي القول : يا أحمد ألا تذهب مع الجماعة ؟ (بتشوف ديرتنا) خطر على بالي فوراً أنني أمام معركة، قلت في نفسي: حضري بطل حساس ما الذي يضمن له السلامة ؟ عيون تغزل. تتكلم.. والبدويات لا يكتشف جمالهن إلا من عايشهن لئن كان ابن حزم يفضل الشقراوات، فإنني أفضل الجمال الفطري البدوي المحتشم على الجمال الحضري وإن كان صادق الجمال، ومذهب سميي أحمد بن الحسين المتنبي كمذهبي حين قال:

حسن الحضارة مجلوب بتطريه
وفي البداوة حسن غير مجلوب

وبمناسبة ذكر المتنبي فإن بعضهم ظن جهلاً أنني أرغب عن هذا الشاعر، وفي الواقع أنه لا يرويني شعر كشعره ثم شعر سميي أيضاً أحمد شوقي.

الأحامدة الثلاثة:

إننا الأحامدة الثلاثة إذا أدخلنا الله الجنة وأرجو ذلك فإنني سأضع شوقي عن يميني والمتنبي عن شمالي وأقيم منتديات أدبية نتناشد فيها أحسن ما قاله الشعراء في إنكار الذات وفي تحريك هم المسلمين لنصر دين الله تعالى.

المقالات:

إن أكثر من ثلاثين مقالاً هاجمني باسم النقد سامح الله الجميع، وبعض المقالات لم تنشر لبذاءتها، وبعض المقالات التي تدافع عني لم تنشر أيضاً لكثرة ما كتب في هذه المعركة، فقد أغلق الباب عدة مرات. وبعضهم كان منصفاً مهذباً كالأخ

محمد عبد الله السيف، وبعضهم دافع عن الحق دفاعاً مجيداً كالأخ محمد بن عيسى الكنعان والأخ محمد منير الجنباز جزى الله الجميع عن الحق خير الجزاء. أما الشيخ عبد الله ابن خميس حفظه الله فقد قال في مقابلته الأولى بتاريخ ١٩/١١/١٤١٠هـ في جريدة الجزيرة إنها طريقة من طرق الإثارة، وسبيل من سبل إحياء النقد، ربما حاول الخاني عن هذا الطريق أن يستثير الهمم ويهز العزائم، ويحيي ما اندرس من سبل النقد وربما أراد الخاني من بادرته هذه أن يزيد التعريف بالمتنبي ويزيد من رفع ذكره وإعلاء قدره، ويطلع أبناء هذا الزمن على مالهذه الأمة من مكانة سامية، وفضل عظيم حيث أنجبت هذا العملاق الذي ملأ الدنيا وشغل الناس..» وفي المقابلة الثانية في ١١/١٦ يقول : «الخلاف في أمر المتنبي أمر طبيعي وعادي وشيء مسلَّم به وليس فيه غضاضة.. إذا قرأنا الطرح واستدرجنا مراحله وتعمقنا فيه وأدركناه فإنه ليس عليه غبار» ثم يقول معقباً: «إن مثل هذه الموضوعات تثري الساحة الأدبية» وقد انتقدني الدكتور بدوي طبانة حفظه الله، ورددت عليه ثم رد علي بمقال يعتذر لي فيه. وكان هذا هو الذي حسم المعركة. وكتبت جريدة الجزيرة في ٢١ ذي القعدة أنني استطعت أن أحرك جمود الساحة الأدبية. ولم أكن أظن أن مقابلتي تلك تلفت النظر، فإذا

بها معركة استمرت أكثر من أربعة أشهر، بينما قدرت أن الرسالة المفتوحة التي وجهتها إلى نازك الملائكة عبر جريدة الجزيرة العدد (٦٢٥٨) عن الشعر الحر هي الجديرة بمثل هذه المعركة الفريدة في الصحافة العربية في القرن العشرين ولذلك فإنني أعيد الآن نشرها.

هل سقطت نظرية إلغاء التناظر

إنني لم أدرك لغز نظرية الشعر الحر حتى عثرت بكتاب «قضايا الشعر» المعاصر لمؤلفته الشاعرة نازك الملائكة وحين قرأت فيه «الهرب من التناظر» ص ٦٠ ط٧ تسلمت مفتاح اللغز، وحُل الطلسم.

تقول الشاعرة فيه «في طفولتنا كانت البيوت التي يعيش فيها الناس ببغداد بيوتاً شرقية في بنائها، تتوسطها ساحة واسعة قد تكون فيها حديقة صغيرة.. وإذ نظرنا الآن إلى الوراء ألاحظ أن نظام الشطرين الخليلي في الشعر كان متناسباً مع هذا الطراز في البناء لأن الشطرين تتوسطهما فسحة أو سكتة في وسط البيت.

وفيما بعد راحت بغداد القرن العشرين تتسع إلى الضواحي، بدأ الناس يبنون بيوتهم على الطراز الغربي المعدل، فلا يستبقون ساحة وسط البيت، وإنما يجعلون الفسحة أمام البيت ووراءه ـ حدائق ـ ولكن تأثير نظام الشطرين الشعري بقي نافذ المفعول في طراز البناء.

في سنة ١٩٤٩ ظهرت مجموعتي الشعرية «شظايا ورماد» وفيها الدعوة الأولى إلى الشعر الحر وإذ انظر الآن إلى الماضي أحس أنني إنما ثرت على طريقة الشطرين الخليلية نفوراً من المنزل الذي يتطابق جانباه تمام التطابق، والحق أنني كنت أستشعر ضيقاً شديداً بنظام البيوت في بغداد، ولم يخطر على بالي أنني إنما دعوت تلك الدعوة الحارة إلى إقامة الشعر على أشطر غير متساوية تفعيلاتها غير متناسقة في العدد لأنني أدعو أيضا إلى تغيير نظام المباني، ولأنني أنفر من التناظر وأتعطش إلى هدمه والثورة عليه(١).

هذه هي نطفة الشعور التي تلقحت مع الفوضى التي أشارت إليها الشاعرة..

فإذا حللنا هذا الجنين فإنا نكون قد ناقشنا جوهر الشعر الحر.

لذلك أقول : إذا نظرنا إلى بنية الإنسان ومررنا خطأ وهمياً من رأسه نزولاً فماذا نجد ؟

نجد اننا حصلنا على شطرين متناظرين منطبقين على

---

(١) جريدة الجزيرة العدد ٦٢٥٨ رسالة مفتوحة إلى نازك الملائكة.

بعضهما تمام الانطباق، اليد اليمنى تقابل اليد اليسرى.. قال الله تعالى: «لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم»(١) ولنتأمل كل ذي روح ننظر إلى الخيل، الجمال، الطيور، الأسماك.. نجد التناظر في شكل هذه المخلوقات قال الله تعالى: «هو الذي أحسن كل شيء خلقه» ففي التناظر جمال الخلق، الانسجام، الارتياح النفسي، جمال الإحساس، الارتياح النفسي، جمال الاحساس وجملة القول: في التناظر جمال.

إن الشكل التناظري أو إن الوزن التناظري دليل على فطرة هذا الفن وعلى سلامة هذه الفطرة، وإن من يقرأ كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» لابي الحسن علي الحسني الندوي حفظه الله ليدرك ان الله تعالى اختار العرب لحمل رسالته لما كانوا يتميزون به من خصائص نبيلة من جملتها صفاء النفس بالنسبة إلى شعوب العالم آنذاك التي كانت محكومة بإصرين هما:

- أولاً: استحكام عقدة التلوث الوثني والإسفاف الخلقي.
- ثانيا: الخضوع للمتنفذ.

بينما كان العربي الجاهلي في منجاة من هذين الإصرين

---

١ - سورة التين - الآية (٣)

٢ - سورة السجدة - الآية (٧)

إن النفور من التناظر لهو تجديد ضل طريقه إنه شذوذ على نحو ما شذوذ فني، ذوقي، وإن عبارة الشاعرة «أنفر من التناظر، وأتعطش إلى هدمه والثورة عليه» لها أكثر من دلالة، ربما كان لها دلالة نفسية يختص بها علم النفس الفرويدي المعاصر الذي يرد كل الرغبات إلى الغرائز التي تعني الطبائع، ثم يطرح هذا العلم نتيجة تلك التحليلات هذا التساؤل العريض. هل هذه النفسية التي رشحت هذه النظرة سوية ؟ وإلى أي حد ؟

ودلالة اجتماعية ربما تساءل رونية أوبير.. إلى أي مدى تتمتع هذه النفسية بالانسجام والبعد عن العقد ؟ وربما خطر علي بال ابن مسكوية هذا السؤال ليضيفه إلى كتابه «تهذيب الأخلاق» ما مدى صلاحية هذه النظرة للشعراء المراهقين والشاعرات..

وفي ميدان التربية والتعليم وفي ميدان العمران يتساءل ابن خلدون أمثال تلك الأسئلة الهادفة..

أسئلة كثيرة تستثار فهل يبقى السؤال حائراً على شفاه السائلين ؟ لقد كرهت الشاعرة التناظر، وإن الانسجام مع التناظر الحسي نبراس الاتزان، الاتزان النفسي، الأدبي، الاجتماعي.. ولنتصور إنسانا ـ وهو الشكل الأكمل للتناظر ـ

ليس متناظراً في خلقه، كأن تخرج له ذراع من ظهره مثلاً، وله عين واحدة، ولنتصور مجمل إنسان الشعر الحر على هيئة هذا الشعر فماذا نجد؟ نجد سطراً يطول، وتحته سطر ينقص عنه، فنتصور إنساناً له يد طويلة ويد قصيرة، ورجل طويلة وأخرى قصيرة وعين كبيرة وأختها صغيرة، أو نجد عينا واحدة.. أو ثلاث أرجل.. أو أذرع الأخطبوط.. ومن باب التداعي فقد ذكرتني الدعوة إلى رفض التناظر منظراً ما يزال يتهادى على مسرح نفسي منذ ربع قرن تقريباً حينما ذهبنا خارج مدينتنا حماة برحلة إلى نهر السن غربي حماة، ولما وصلنا إذا بتجمع يمرح وآلات لهو ورقص.. ومن باب حب الاستطلاع نظرت فاذا بي أرى شاباً يزيد عمره عن عشرين سنة يلهو مع اللاهين وقد حلق أحد شاربيه وترك الآخر وحلق جانباً من لحيته الذي فيه شعر الشارب وأطلق شعر لحيته في جانب الشارب المحلوق ولما سألت عن بسبب ذلك قيل لي : إنه شاب مريض نفسياً.. تراقصت أمام ناظري الآن تلك الرؤى فقلت: إن هذا الشاب لا يحب التناظر.

إن الشاعرة نازك الملائكة شاعرة العطاء الذي أصبح يحمل إشارة «-» بدلا من أن يحمل اشارة «+».

لقد كان شعرنا الجاهلي مشطراً فلما جاء الإسلام كان هو

الاولى بهدم هذا الصرح الشامخ بيد أن الإسلام لم يهدمه وإنما عزز الشكل وحمَّل المضمون رسالة فطعم هذه النبتة الوحشية فأتت أكلها يانعة بينما نرى شاعرتنا نازك قد نفرت من التناظر في الإحساس في البيوت وساحاتها داخل الدار لا خارجها.ألم تعرف نازك أن البيوت على الطريقة الإسلامية أحفظ للأخلاق؟ أم أن هذه النقطة ليست مهمة في نظر نازك؟ لو عرفت شاعرتنا أفكار مالك بن نبي رحمه الله لأدركت طريقة البناء الحديثة قد سماها «القابلية للاستعمار» أفلا يهم نازك العنصر الوطني والوطنية؟.

إن شاعرتنا نازك أعقل من أن تنظر بعقلية المرأة الساذجة إلى «القضايا» الأدبية الكبيرة.

ولما نشرت هذه المقالة لم تحرك ساكناً، حتى إنني لم أر إلا القليل الذين قرؤوها وعللت ذلك تعليلاً مبدئياً أن توقيت نشر هذا المقال ربما يكمن فيه السبب.

عودة إلى المتنبي:

وأعود لأقول : إن سميي أحمد بن الحسين يكاد يحتل من نفسي (موقع فطرقل من نفسي آخيل)[1] إنني لو جالست الذين دافعوا عن المتنبي والذين داهنوا معهم في الصحف والمجلات العربية لكشفت عن قلة بضاعتهم في معرفتهم مكامن الروعة في شعر المتنبي، سأبصِّر أصدقائي السلبيين بغزل المتنبي ببيت واحد حيث يقول:

لهـــوى النفـــوس سريـــرة لا تُعلـــم
عـــرضاً نظـــرت وخلت أنـــيَ أسلـــم

إنه مهما قال القائلون في الغزل فإنهم لايستطيعون أن يرتقوا إلى سفح هذه القمة ولا إخالهم يكادون، وجميع من أعمل أنيابه الكليلة مدافعاً عن المتنبي لم يقدم من النماذج العليا لصاحبي وسميي، وبذلك أساؤوا إليه من حيث لا يريدون، ولو تنبهوا إلى ذلك لم يفعلوا.

---

(١) هذا مثل يوناني. انظر الإلياذة لهوميروس ج٢ ترجمة سليمان البستاني.

مما قالته الصحف:

ولا أدري ما الذي ورط الدكتور بدوي طبانة معي، حفظه الله وسامحه، بل لا أدري من الذي ورطه، أهو صديقنا المحاور كما قال لي ؟ أم غيره ؟ مع أن الدكتور بدوي كان في غنى عن أن يتعرض لقلمي وكنت معه لطيفاً جداً كبقية النقاد ولكنني أشهد أنه متفرد بشخصيته الفذة وحينما قلت له: «العظماء صادقون مع أنفسهم لعل الدكتور ينصف نفسه من نفسه قبل أن ينصف من أجحف بحقه» ولعل هذه العبارة بالذات كانت له بمثابة «فنجان قهوة الصباح» فما كان منه إلا أن أنصف نفسه فعلاً وأنصفني. والمتابع لهذه المعركة النقدية رأى العجب، فمنهم من حرّف كلامي وبدل فيه ونسب المتغير إلي (وكل إناء بالذي فيه ينضح) وبعضهم تساءل عن سبب إطلاق لقب «سيد الملاحم العربية» علي هل هو ديواني الخامس «مع الشعراء»؟ فكان جوابي: كلا، بل ربما كانت ملحمتي بدر هي السبب، والآن بعد طبع هذه الملحمة ألم يقرأ نقادي الأفاضل شيئاً يعيد إلى أذهانهم ترتيب أوراقهم المبعثرة؟

أذكر طرفاً مما قالته الصحف والمجلات:

(صدر حديثاً للشاعر أحمد الخاني ملحمته الشعرية ملحمة بدر التي تقع في ثلاثة مجلدات بلغت أبياتها عشرة آلاف

بيت.. تجدر الإشارة إلى أن هذه الملحمة الأولى من نوعها في معركة بدر والأولى في الأدب العالمي المعاصر».

ومصدر آخر يقول : أصدر الشاعر المعروف أحمد الخاني ملحمته الكبيرة ملحمة بدر في عشرة آلاف بيت.. الأستاذ يحيى المعلمي قرأ الملحمة وأعجبته كثيراً، وقد رشحها للبرنامج الإذاعي كتاب وقارىء وفي سؤال عن المستوى الفني للملحمة قياساً لكثرة الأبيات أكد المعلمي أن ذلك لم يؤثر على الناحية الفنية، وأن الشاعر يتمتع بنفس شعري طويل. وقد استمعت إلى هذه الحلقة في المذياع ومما قاله سيادة الفريق يحيى المعلمي «.. إن الشاعر أحمد الخاني لم يترك جزئية من جزئيات معركة بدر إلا وصفها وصفاً دقيقاً، مع جمال اللفظ، وبراعة التركيب ورشاقة الأسلوب وروعة التصوير..».

ومصدر آخر يقول: «.. والحقيقة إنها لخطوة جريئة من الشاعر أحمد الخاني في إحيائه لفن الملحمة والذي اندثر منذ زمن طويل ويستحق عليها كل تقدير، ويستحق أن نلقبه بكل فخر «سيد الملاحم العربية» وليسمح لي القارىء والشاعر حافظ إبراهيم أن أغير في بيته فأقول:

أمير «الملاحم» قد أتيت مبايعاً
وهذه وفود «الأرض» قد بايعت معي.

وفي المجلة العربية: «أحداث معركة بدر الملحمية صاغها الشاعر أحمد الخاني بقصة قاربت العشرة آلاف بيت على وزن واحد من بحر الخفيف أو مجزوئة، وبقوافٍ متلونة عند كل رباعية، وإنه لعمل كبير يستحق الوقوف عنده، ودراسته، لأنه عمل ريادي فيما أرى لم يسبقه أحد في هذا، ولا تجيء أهمية الملحمة ببعث التاريخ الإسلامي الفذ فحسب، وإنما بعودته حياً متحركاً.. ولهذا تضافر للشاعر مزج الفن والتاريخ بالحدث التاريخي الرائع، كما يبدو أنه عرف كيف يمكن للتاريخ أن يعود بصورة من الملحمة المعاصرة، لأنه يحسن الدخول إلى عالم الحكاية أو الرواية التي تجعل سامعه أو قارئه متجاوباً مع الرواة وأبطالهم.. للدخول إلى عالم أفضل تفوح به روائع بدر وتاريخها المجيد».

وآخر خبر في جريدة المسائية الأربعاء ٧ ربيع الأول ١٤١١هـ يقول بعنوان : «أمير الملاحم يستريح مع كتاب القهوة».

وهذا هو الكتاب الذي بين يديك «القهوة والحب» يا صديقي. ولنسترح قليلاً مع هذه المقطوعة قبل أن نعود إلى البادية:

كناري

كنــــــاري هـــــز وجدانــــــي
يــــردد عـــزف عـــزف ألحانـــــي
شدا لــــي فـــي الضحـــى الوانـــــي
فأسكـــــــر زهــــــر بستانـــــــي
يقـــــول بـــــظل أغصانـــــــي
وعيــــن النـــــور ترعانــــــي:
تـــــراءى طيفهـــــا الحانـــــي
علــــى أطيـــــاف تحنانـــــــي
وتسألنـــــــــي : أتهوانـــــــي ؟
وتسألنـــــــي : أتنسانـــــــي ؟
فـــــقلت : الــــحب عنّانـــــي
فأضحكنـــــــي وأبكانـــــــي
أيبحــــــر مـــــركب عانـــــي
علـــــى آمــــاق عميــــان ؟!
أيامَـــــــن زان بنيانـــــــي
ورسخ جـــــــذر أركانـــــــي
سأنشد صفـــــــو ألحانـــــي
علـــــى عليـــــاء أكوانــــــي:

بملحمتـــــــــــــي وتبيانـــــــــــي
سأرفـــــــــع رأس أوطانـــــــــــي

عودة إلى البادية:

أومض فـي خيالـي كل هـذا بلمحـة عيـن، حينمـا كنت فـي البادية وحولي الصبايا وتذكرت قولي صاحبي:

لهــــوى النفــــوس سريــــرة لاتعلـــم
عــــرضاً نظــــرت وخلت أنـــــي أسلـــم

فأشفقت على نفسي حينما سألني مضيفنا مكرراً:

هيه (إيش رأيك يا احمد ؟)
هززت رأسي قائلاً : لا.
وكسفت بال الصبايا وظليت في البيت.
ولي في كتاب ابن حزم في «طوق الحمامة» عبرة.
ولويت عنان خواطري

كان الصباح كأنه صباح الجنة، لا شمس ولا قمر، ولا حر ولابـرد وكـانت الأرض بساطـاً أجـمل مـن بساط كسرى، أمـا روائح الأزهار فهي أزكى من أزهار عيون قصارين.

السهرة:

وحان المساء وانتظم شمل المجلس، وتنوع الحديث، ومر ذكر سنة الثلج الذي دام أربعين يوماً نفق فيها تقريباً كل ذي روح، وقال والدي : إن شركاءهم البدو كانوا ينزلون إلى حماة ومعهم آذان الغنم التي نفقت بالآلاف وقد سلكوها بخيوط قوية ليدلوا بذلك على صدقهم وهذه الآذان عليها «الداغ» وقد رأيت داغاً صغيراً عليه «الخاني» وآخر كبيراً. وهذا الداغ يحمّى ويكوي به جلد النَّعم. وتكلم أبي رحمه الله قرابة ٣ ساعات عن الخيل وأنسابها ومواطنها وفرسانها وأحداثها ووقائعها، يسمى الفارس ويسمي الفرس ويسمى نسبة العصب ومن أي قبيلة ويذكر اسم أبيه وأجداده وأحفاده ويسلسل شجرة نسب الكرش صعوداً وهبوطاً.

والقوم صامتون كأنما على رؤوسهم الطير، لا يقاطع حديثه مقاطع، ولا يصخب في مجلسه إلا قرع فنجان القهوة في فم الدلة، وحتى هذا الصوت نفسه قد خَفَتَ رنينه، وأصبح الساقي متحفظاً حذراً أما صوت صقطقة الحطب في النار فلم يكن يلفت النظر. وعرفت من خلال حديث أبي رحمه الله مقدار معزة الخيل في نفوس العرب، وإحدى قصصه:

«كان شيخ من شيوخ القبائل[1] حفياً بفرس له زرقاء، رآها أحد الضباط العثمانيين، فوقعت في نفسه، وبعث في طلبها، فضن بها الشيخ وقدم فرساً شبيهة بها. فردها الضابط وقال له السفير : إنه يريد الفرس التي طلبها، فأعطاه ثانية غير التي طلب.

ثم جاء بنفسه، فبادره الشيخ : أتردُّ الفرس مرتين ؟ فأخذ الضابط يتجول بين الخيول بأنظار متفحصة، ولما وقف على الفرس ورأى الشيخ تصميم الضابط على انتزاعها، ما كان إلا أن قتله وأنقذ الفرس». فكان التعليق «يستاهل»

ولئن كانت الخمرة من مقومات الحياة في الجاهلية كما قال طرفة:

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عوّدي
فمنهن سبقي العاذلات بشربة
كُميت متى ما تعل بالماء تزبد

فإن البدوي عد القهوة من مقومات حياته إذ يقول: «ما دام قهوة وتتن، كل الأمور تهون».

---

(١) أدون هذه الخواطر بعد حوالي ٢٥ عاماً من القصة فليعذرني القارىء إذا نسيت الأسماء.

وإن ذكر مجالس القهوة في البادية لاينتهي، فلنتعرف إلى مجالس القهوة في الوجه الآخر لحياتنا لصيق الصلة ألا وهو الحاضرة.

مجالس القهوة في الحاضرة:

أما مجالس القهوة في الحاضرة، فلها طابعها المميز، فقد كانت المضافات إلى عهد قريب مظهراً من مظاهر الأنس والتآلف الاجتماعي، ووحدة الصف واجتماع الكلمة في الحي الواحد، ومظهراً من مظاهر الكرم، ومساعدة الضعيف، والأخذ بيد المظلوم، وردع الظالم، وكانت المضافة مؤسسة للتكافل الاجتماعي، وجملة القول: كانت المضافات ترمز إلى «الحب» وكانت القهوة عنوانها.

وفي أثناء احتساء القهوة كانت تفض المنازعات، وكان إلى عهد قريب «عميد الأسرة» قبل أن تدخل الاعتبارات الدخيلة، وقبل تفتت اجتماع العائلات وانفضاضها عن عميدها، كان للعميد سلطة «الرئيس المحبوب المطاع» كلمته فصل لا يخرج عنها صالح ولا طالح، كانت سلطة عميد العائلة بمثابة شيخ القبيلة، وكان العميد كهف العائلة التي إليه تأوي، وظلها في الهاجرة، وراعيها الذي يهش عليها، وسيفها الذي تضرب به، ومجنها الذي يدرأ عنها، ولسانها الذي به

تبين.. وكانت المضافات ملتقى زيارات العمداء وكانت هذه الزيارات تترك أطيب الأثر على المجتمع، «يبقى المكان على آثارهم عطراً» إذ كانت تذيب الخلافات بروح ملؤها المحبة، وتزيد الروابط الاجتماعية والروحية توثيقاً، ولم تكن المحاكم تبتز أموال الناس بالحق أو بالباطل، ولم تكن المحاكم تقلب الحق باطلاً والباطل حقاً، ولم تكن تقع ٩٩٪ من المآسي التي نشأت بعد أن ضرب مركز العميد، ولما استهدف هذا المركز وضُرب انهارت التكتلات الأسرية الطيبة وانفرط عقد الأسرة، وحل محلها المآسي التي لا حصر لها.

منه إلا أن قتله وأنقذ الفرس». فكان التعليق «يستاهل».

فالمرشح الذي اختاره جدّي رحمه الله ليكون نائباً ـ وهو يحيا للقيم العليا ـ في البرلمان السوري هو الذي أجمع عليه أهل الحي لم يشذ منهم أحد وأنا كنت أسقيهم القهوة العربية الأصيلة في ذلك الملتقى الطيب المبارك.

على فنجان القهوة:

وفي الحواضر تغير مفهوم مصطلح «فنجان القهوة» ولا سيما هذه الأيام، فمعلوم أنك إذا تلقيت هاتفاً من صديق يخبرك أنه سيأخذ منك موعداً ليشرب معك فنجان قهوة، فإنما ذلك يعني أن هناك موضوعاً ما سيطرحه، ويكون فنجان القهوة

صلة الوصل في هذا اللقاء، والعلاقات العامة يرطبها فنجان القهوة، فالعلاقة بين الرئيس والمرؤوس تزداد ألفة إذا كان بينهما فنجان القهوة، وإذا لاحظ الرئيس على مرؤوسه ما يدعو إلى لفت نظره، فإن فنجان القهوة مع طلاقة الوجه والكلمة اللينة الحلوة ربما يتحقق المراد بإذن الله بشكل إيجابي من منطلق الحب لا الكره، ولا الفوقية والشموخ وما يجر من بغضاء وشحن السخائم والتعامل بحساسية مفرطة.

ومن باب العتب بين الأصدقاء قولهم : جئت حينا ولم تمر علينا لنشرب فنجان القهوة ؟ أو يتمثلون بيت جرير[1] (مع التصرف بكلمة منه)

تمـــرون الديـــار ولـــم تعوجـــوا
«فقهوتكـــم» علـــيَّ إذاً حـــرام.

ومن هذا الباب الأغنية:

«مـــا دام جـــيت علـــى الحـــاره
مـــا تشرِّفنـــا بزيـــاره ؟
مـــا راح بتكلفنـــا كتيـــر
فنجـــان قهـــوه.. وسيكـــاه

---

(١) ولهذا البيت رواية ثانية وهي: مررتم باليار ولم تعوجوا كلامكم علي إذاً حرام وهذه الرواية لا يعول عليها.

ثم قالت الشنتيرة[1] النصرانية جنيفا غاني - صباح - معلقة: «ما بتحرز».

إن فنجان القهوة خفف من عبء الضيافة بعد أن كان المضيف يحار فيما يقدمه لضيفه من فاكهة وحلوى.. وربما كان الضيف ممتلئاً فيحرج في عصر السمنة، أصبحت حاجة اليوم إلى البشاشة والإقبال. على الضيف كما علمنا الإسلام أكثر من الحاجة إلى أصناف الطعام والشراب.

وما أكثر العلاقات الاجتماعية من أدبية ونحوها، وهل تظن أن لقاء يتم دون حضور فنجان القهوة ؟ ومن هذه الحوارات الأدبية ما دار بين الشيخ وتلميذه.

بين الشيخ وتلميذه:

قال الشيخ: إننا أمناء على هذا الجيل، فما رأيك بالعصا ؟
التلميذ: ألا تذكر يا شيخ أن الضرب إهانة ؟
– أنت تنكر مبدأ الضرب؟ أم الأسلوب؟
– كلا النوعين أنكر
– ولماذا ؟
– لأن العصا ترهب الإنسان وتعقده

(١) الشنتير معربة عن الفرنسية وتعني « المغني ». والشنتيرة مؤنثها إذا أجاز هذا القياس مجمعنا العلمي.

- طيب، وهل أنت معقد ؟
- لا، ولكن أليست هذه نظرية «علم النفس» ؟
- إن فرويد مخترع علم النفس، يهودي أفهمت ؟
- والرسول ﷺ يقول: «مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر» أو كما قال ﷺ

وهم أبناء سبع واضربوهم عليها وهم أبناء عشر.. «وأزيدك علماً أن الكثير من (عظماء) العالم ماتوا مجانين أو منتحرين، فرويد دوركهايم نيتشة، جان جاك روسو، هتلر.. إن أسماء هؤلاء تملأ مجلدات ضخمة أفيصح أن يكون هؤلاء اليهود والنصارى مشرعين ؟

- الضرب للصلاة مباح أما للعلم فهو غير مباح في نظري.
- هل أقررت بمبدأ الضرب أم لا ؟

- بلى أقر مبدأ الضرب للتعليم، كما أقر أيضاً مبدأ ضرب الزوجة الناشز ولكن الناس تتعسف باستعمال هذا الحق.
- اترك الكيفية الآن، نحن ما زلنا نبحث في المبدأ. هل اقتنعت ؟

- ما يزال في النفس من ذلك علالات ألا يمكن للإنسان أن يتعلم دون عصا ؟

– ما رأيك أن يتولى التاريخ عني الجواب ؟
– التاريخ ؟
– نعم.ما رأيك بشخصية محمد الفاتح ؟ فاتح القسطنطينية ؟
– قائد إسلامي عظيم. ولكن ما علاقته بحديثنا ؟
– أقرأ لك في جبين التاريخ كيف أن العصا جعلته قائداً عن جدارة بعد أن كان هازلاً مستهترا.
– وفي أي كتاب ستقرأ ؟
– من كتاب «السلطان محمد الفاتح» لمؤلفه السعودي سالم الرشيدي وقد نال به درجة الدكتوراه.
– أنا لا يهمني الألقاب أريد توثيقاً لهذا الكتاب.
– ما رأيك بالشيخ علي الطنطاوي ؟
– وما علاقته بهذا الموضوع ؟
– إن شيخنا علي الطنطاوي حفظه الله وإياك يا بني ومد في عمركما ونفع بكما المسلمين، هو الذي قدم لهذا الكتاب فاستمع إن شئت لما يقول فيه : «هو كتاب إن طلبت القصة المفصلة المسلسلة وجدت فيه القصة المسلسلة المفصلة، وإن شئت التاريخ المحقق الممحص رأيت فيه التاريخ الممحص المحقق».
– الآن وثقت أيها الشيخ فقل:
– أفتح هذا الكتاب وأقرأ في الصحيفة ٣٨١ «وقد عني

السلطان مراد عناية بالغة بتعليم ابنه وتثقيفه، غير أن محمداً أظهر أول الأمر جموحاً وإعراضاً شديداً عن التعلم والدرس، ولم يسلس قياده لأحد من المعلمين الذين ندبهم أبوه لتعليمه، فسأل عن رجل ذي مهابة وشدة، فدل على المولى أحمد بن إسماعيل الكوراني، وأعطاه السلطان مراد قضيباً يضرب به، ودخل على محمد والقضيب في يده، وقال له : أرسلني والدك للتعليم والضرب إذا خالفت أمري فضحك منه محمد وسخر من كلامه فعاجله المولى الكوراني بضربة قوية ارتاع لها الفتى الشموس ثم استخذى لها وأدرك أنه أمام معلم جديد يختلف عمن سبقه كل الاختلاف وكأنما كانت هذه الضربة الأولى الحازمة التي تلقاها محمد الطلسم الذي فك الأقفال والمغاليق عن نفسه ففتحت جوانبها، وأقبل الفتى على التعلم بنهم وجد ونشاط، فما مضى غير قليل من الوقت حتى ختم القرآن، واستبشر والده بذلك واغتبط وغمر المولى الكوراني بالعطايا والأموال الوفيرة».

التلميذ : أفدتني أفادك الله، ولكن ألا يستغل هذا المبدأ ؟

الشيخ : يجب أن تستعمل الحكمة في تطبيق هذا المبدأ الغالي، وليتصور المدرس طلابه أنهم أبناؤه، فكيف يعاملهم ؟ إنه إذا قسا فإنما هي قسوة الأب الحازم كما قال الشاعر:

فـــقسا ليزدجـــروا، ومـــن يك حازمــــاً
فليـــقس أحيانـــاً علـــى مـــن يرحـــم

التلميذ : ما رأيك يا شيخي أن ننتقل إلى الأدب ؟

االشيخ: اشرب فنجانك. وماذا لديك؟

– كنا في نادي القمر فقرأ أحدهم قصيدة أقرؤها عليك :

«يــا للـــي عيـــونك نجـــوم اللـــيل فـــي إدلب
علـــى قبـــور النصارى فتـــح السلـــور
أنا بحبك
ومنيتك على حالك»

– ومارأيك فيها ؟

- رأيي أنهـا أحسن قصيدة. لـم يـقل شاعـر مثلهـا قبلهـا، ولا يمكن أن يقول شاعر مثلها بعدها.

– وعلى أي أساس بنيت حكمك «النقدي» هـذا حينمـا قلت : لـم يقل شاعر مثلها قبلها ؟

– لا أدري على أي أساس.

– وهل أطلعك الله على الغيب وعلم المستقبل ؟

– طبعاً لا.

– هل تعلم أنني أشفق عليك ؟

– الرثاء أهون من هذه العبارة

– إذاً حتى تصحو «اشرب فنجانك»

- ولماذا يا شيخي هذه القسوة ؟
- هذه ليست قسوة وإنما هذه رحمة، حتى تتعلم أنت ومن يتسرع في الحكم ألا يصدر أحكامه (النقدية) انطباعية التأثر، ارتجالية الحكم (النقدي).

هل تعلم ؟

- هل تعلم أن الإنسان بلا رسالة كاليهودي التائه؟
- هل تعلم أنك إذا كنت قوياً فالناس تحترمك ولكن لا تحبك، وإذا كنت ضعيفاً فالناس تحبك ولكن لا تحترمك ؟
- هل تعلم أن إحساس أمتنا بالعزة الإسلامية كاف لوضع حد لتمادي الحروب الصليبيه ؟
- هل تعلم أن ابتسامة طفلي في وجهي كفيلة بأن تجعل صحرائي جنة وارفة الظلال ؟
- هل تعلم أن الإبداع يشيخ لدى أناس ولا يشيخ لدى آخرين ؟
- هل تعلم أن الفن لغة الأحاسيس ؟
- هل تعلم أن عصرنا هذا يسمى عصر الملاحم ؟!
- هل تعلم أن شاعراً نظم قصيدة في حوالي نصف مليون بيت من الشعر كلها في موضوع واحد ؟
- وهل تعلم أنه حان الآن دور الشعر ؟

قصيدة في صَاحِبْ مقهى

قال الأستاذ احمد الصافي النجفي في صاحب مقهى في كتابه

(الأمواج)

هَبَّ صُبْحــــاً مِــــنْ كَــــراهُ فَــــمَضَى
راكِضاً مِــــنْ بَيْتِــــهِ لِلْعَــــمَلِ
حاكِيــــاً فــــي عَــــدْوِهِ سَيــــارَةً
أوقِــــدَتْ بِالطَّمــــعِ المُشْتَــــعِلِ
دَخَلَ المَقْهــــى وألقــــى نَظَــــراً
حاسِبــــاً كَــــمْ حَلَّــــهُ مِــــنْ رَجُلِ
فَــــاذَا مَــــرَّ علــــى قَهْوَتِــــهِ
عَابِــــرٌ طَــــارَ لَــــهُ مِــــنْ جَــــذَلِ
آمِــــلاً أنْ يَــــدْخُلَ المَقْهــــى فَــــإِنْ
رَاحَ أعْيَــــاهُ ضَيــــاعُ الأمَلِ
يَــــحْسَبُ الزائِــــرَ فِلْساً داخِــــلاً
كــــيسَهُ يَرْجــــو بِــــهِ أنْ يَعْتَلــــي

طَلَبَ الزائِـــــرُ مـــــاءً فامْتَـــــلا
مِنْـــه غَيْظَـــاً كـــادَ فيـــهِ يَصْطَلـــي
قائِـــــلاً بَلْ فَـــاطْلُبِ الشاي الـــــذي
لَكَ يَأتـــي بِالـــروا وَالربْـــحُ لـــي
إنْ أرَدْتَ المـــاءَ فَـــاقْصُدْ بَـــرَدى(١)
فَهْـــوَ لِلظمْـــآن اصْفـــى مَنْـــهَلِ
جَلَسَ الضَّيْـــــفُ فمــــا أمْهَلَـــهُ
بَلْ عَلَيْـــعِ انـــقَض مِـــثْل الاجْـــدَالِ(٢)
وَإذا أمْـــــهَلَ عزرائـــــيل فـــــي
قَـــبْضِهِ الـــروح فَـــذا لَـــمْ يُمْـــهِلِ
قائِـــــلاً عَـــجِّل وَقُل مـــا تَبْتَغـــي
عِنْدَنـــا مِـــنْ مَشْرَبِ أو مَـــأكَلِ
فَيَقـــول الضَّيْـــفُ لا أبْغـــي سوى
راحَـــةٍ تُنْقذنـــي مِـــنْ كَللـــي
فَيُناديــــــهِ بِعُنْــــفِ هَـــذه
قَهْـــــوَةٌ لِلشُرب لا لِلـــــكَسَلِ
فَـــاذا قَـــالَ لَـــهُ الشَّعْبُ غـــداً
عَـــطل المَقْهـــى يُصب بِالعَـــطَلِ

---

(١) نهر بدمشق.
(٢) الأجدل : الصقر.

وقال السيد محمد الحريري مفتي حماه يفضل القهوة على الشاهي(١):

هاتهـــا قـــوة خـــلاصة بـــن
مـــرة الـــذوق تدفـــع النـــوم عنـــي
واسقنيهـــا بالهـــال يعبـــق فيهـــا
طيبهـــا فـــوق طيبـــه وادن منـــي
بفناجيـــن صنعـــة الصيـــن فيهـــا
مـــن بديـــع النقـــوش أعـــجب فـــن
فهـــي عنـــد الكـــرام أول شيء
يحتسيـــه الإنسان حيـــن يثنـــي
أيـــن منهـــا الشاي الـــذي ذكـــروه
فمـــن الشاي يـــا أخـــا الـــذوق دعنـــي
إنمـــا الشاي فـــي الحقيقـــة نـــبت
جلـــده يـــابسٌ كشيـــخ مُسنٌ
وهـــو لـــم يخلـــط بسكـــر مصر
مـــرّ ذوق يأبـــاه بـــالشرب جنـــي
أنت فضلت أعجميـــاً علـــى يعربـــي
وهـــذا مـــن موجبـــات التدنـــي

---

(١) من كتاب «تحفة العقلاء في القهوة والثقلاء» وما بعدها.

قال الشيخ عبد الله بن علي آل عبد القادر
مجيباً بها الشيخ حمد بن عبد اللطيف آل مبارك

أغثنـــــي أيهــــا الساقــــي لعلــــي
إذا أصمــــــتك نازلـــــــة سقـــــيت

بكـــــأس حـــــن مـــــن بـــــن اليمانــــي
بنـــــــفسي أنت مـــــن ساق فـــــديت

أهــــذا البــــدر فـــي كـــأس التهانــــي
مـــــع الإشراق أم شفقـــــــاً حسبت ؟

سلاف، سلسل، راح، رحيـــــــــــق
شفـــــاء الهـــم، حمـــــراء، كُمَـــيت

مشعشعـــــــة يطـــيب لنــــا شذاهــــا
متـــــى آنست رياهـــــا انـــــتشيت

شراب يبــــعث الأشبــــاح، حتــــى
لـــو انـــي مقعـــد عمـــري مشيت

شراب ينـــــــهض الأرواح، حتـــــى
كأنـــــي فــــي السمـــــوات ارتقـــيت

إذا أم الخبــــــــائث نازعتهـــــــا
لطيفــــاً فــــي شمائلهــــا أبـــيت

تمـــــد نباهـــــة عقلــــي كمــــا قــــد
يمــــــد ذبالـــــة النبـــــــراس زيت

ألا زعــــمت بــــأن الكــــأس يصبـــو
إلــــى الساقـــي ويجنـــي مـــا جنـــيت
ألـــــيست صبغـــــة الــــعشاق فيهـــا
فتشهـــــد لـــي بأنـــي مـــا افتـــريت
فغـــزت مـــن الحبـــيب علـــى حبـــيب
وهل تـــــدري لأيهمـــــا قضيت ؟
إذا زار الخيـــــال وشيعتـــــــــه
مـــع الأسحـــار أنفـــاس هـــويت
وفـــاضت مهجتـــي دمعـــاً وثـــارت
مـــــن الأحشاء أشواق طـــــويت
علـــى تلك الملاهـــي فاسقنيهـــا
إذا مـــا الكـــأس أشهـــى مـــا اشتهـــيت
ثلاثـــاً عـــــد ساقيهـــا علينـــا
إلـــى خـــمس ولاء فاستقـــــيت
معـــان جلـــــيت فـــي كل قلب
وقلب لـــم يجدهـــا فهـــو مـــيْت

وأهداني الأستاذ محمد ناصر الخليف هذه القصيدة

إلى غاضبة

شعر : محمد ناصر الخليف

علـــــم الله غرامـــــــي بالكــــــرمْ
ولـــــذا أحبـــبت سمـــــراء العجـــمْ
قهــــــــوة تسكب للضيـــــــــف إذا
أقـــبل الضيــــف وبالـــــدار ألـــــم
غـــادرت جـــوف الرشيقـــات التـــي
كلمـــــا مـــالت تلقاهـــــا الخـــــدم
مــــن فناجيـــــن تراهـــــا لؤلـــــؤاً
شع كالثغـــــــر إذا الثغـــــر ابـــــتسم
بعــــــــــد ود وتصاف بيننــــــــــــا
جـــف ميعـــاد التصافــــي وانصرم
كلمــــا لاقيتهــــا فـــــي محــــــفل
قــمت عنهـــا رغـــم أنـــي لـــم أقـــم
حـــملت فـــي قلبهــــا موجـــــدة
مـــن لهـــيب وعتـــاب مضطــــرم

ورنت نحـــوي بطـــرف غـــاضب
ثـــم بالوجـــه أشاحت فـــي الظلـــم
صورت وهـــي شمـــوس أختهـــا
مـــن بنـــات الإنس ترمـــي بالتهـــم
إيـــه يـــا ظالمتـــي قـــبل السرى
راجعـــي النـــفس فـــذا الظلـــم ظلـــم
واسمعـــي منـــي مقالـــي قـــبل أن
تصدري الـــرأي فـــلا ثـــم كلـــم
صدنـــي عـــن وصلك العـــذب لظـــى
بيـــن أحشائـــي برمـــي بالسهـــم
حرقـــة أعرفهـــا مـــن حرقتـــي
ولهـــيب لـــيس يطفيـــه الشبـــم
قـــال لـــي يومـــاً طبيبـــي عاتبـــاً
أولـــم أنـــهك عنهـــا أو لـــم ؟
غيـــر أنـــي يـــا فتاتـــي عـــازم
وصل حـــبل الـــود منـــه مـــا انـــفصم
ربمـــا تـــرغب فـــي الشيء الـــذي
فيـــه آلامك جمعـــاً تنتظـــم
وقديمـــاً قـــيل : عيـــن للـــرضا
عمـــيت عـــن كل عـــيب يـــرتسم

كما أهداني الأستاذ محمد منير الجنباز هذه القصيدة

ساقي الشاي

شعر محمد منير الجنباز

جَـــذَبَ الكـــؤوس وَصَفَّهـــا أدوارا
مُتَنَحْنِحـــاً حَتَّـــى نَـــرَاهُ جِهَـــارا
فـــإذا نظرنـــا صادَفَتْنَـــا بسمـــةٌ
تُبـــدي نواجِـــذَ سُطِّـــرتْ أسْطـــارا
هـــذه إشارَتُـــهُ لِيَبْـــدَأ سَاقيـــاً
كـــأساً تَكَبْـــكَب نِصْفُهـــا إهْـــدَارا
لكـــنَّ ساقينـــا يَزيـــدُ شَرَابنـــا
بَعْـــدَ النضوب سَواقيـــاً وبحـــارا
فَـــرِح بِمـــا يُعْطـــي سَخِـــيٌّ كَفُّـــهُ
جَلْـــد خفيـــفٌ يُعـــجبُ السُّمَـــارا
فـــي مُقْلَتيـــه بريـــقُ ضوءِ مؤمـــنٍ
أمْضَى سَحَابَـــة عُمْـــرِهِ نَكَّـــارا
شَرِب التَّـــأدُبِ مـــن معيـــن عُروبَـــة
يَسْقـــي ويُحجِـــمُ صامتـــاً صَبَّـــارا

وتـــراهُ مـــثل السحب فـــي حركاتـــه
يَعْلـــو لِـــيَسْكبَ شايـــهُ أمطـــارا
يومـــاً يَطـــيبُ شرابُـــهُ فنُحِبُـــهُ
وَنَبثُّـــهُ حُسْنَ الدعـــاءِ شِعـــارا
ونقـــولُ هـــذا الشَّايُ أحْسَنُ مـــا صَنَـــعْت
فَـــزِدْ لَنَـــا مـــن طيبِـــه أوْتَـــارا
دُرْ أيُّهـــا السَّاقـــي بُعيـــدَ سُلافَـــةٍ
بـــالشاي حتـــى تُنْـــعِشَ الأفكـــارا
لكنَـــه ينسى الطريقـــة ساهيـــاً
وتَعُـــودُ أيـــامُ الأسى تكـــرارا
فيفاجـــيءُ الشُّرَابَ فـــي كـــأسٍ لهـــا
طَعْـــمُ يَلِـــفُّ الحَلْـــقَ والمِزْمَـــارا
إنَّـــا نُريـــدُ الشَّايَ فـــي لـــون الغـــروب
مُدَّثـــراً قـــد أطْفـــأ الأنـــوار
وتقـــولُ : سَمْعـــاً لا تـــردُّ كَلاَمَنـــا
فغـــداً أزيـــدُ شَرَابكـــم أزْهـــارا

وكنت على شاطي النيل أرشف فنجان القهوة وأكتب:

يــا نــيل، تعــزف للهــوى ألحانــي
بيــن العيــون الــخضر والريحــان ؟
يــا نــيل، يــا شفــق الخلــود نضارة
أضحــى فــؤاديَ مرتــع الغــزلان
حوريـــة تسقـــي اللحـــاظ سلافـــة
لا تحتويهـــا فـــي الغـــرام دنانـــي
وتجوهــــرت أنوارهـــــا فتانـــــة
تـــزري بعقـــد الـــدر والمرجـــان
وأصخت، قـــال النـــيل : جـــئت بشاشة
نـــبضي كنـــبضك أخضر الشريـــان

وأهديت القصيدة بعد أن نشرت في جريدة الجزيرة إلى زميل لـي مـن «الجنـوب» الجنـوب الرومـانسي الحالـم الجنـوب وعـروسه أبهـا زمـردة الجنـوب، وقـد قلت فـي ديوانـي مـع الشعراء:

«مـا عـرفت البشريـة علـى مـدار التاريـخ مدينـة أنجبت مـن الشعراء ما أنجبته حماه».وإنني قد وجدت أبها والجنوب صنو مدينتي حماه فـي الشاعريـة ورقـة الأحـاسيس فالشعـر يسري بدمـاء أهل الجنوب، وهـم يشبهـون قبيلـة عـذرة اليمـانيـة ولـم أكـن

أدري حينما أهديت إلى زميل من الجنوب أنه شاعر. وإنني سأفترض أن كل من سأعرفه من الجنوب أنه شاعر فزميلي بعد أن تناول قصيدتي قدم إلي هذه القصيدة مشكوراً حفظه الله ونمّاه.

أهداني صديقي الشاعر
علي الأسمري هذه القصيدة

حوار مع بغداد
في حضرة شاعر عربي

شعر : علي الأسمري

أغريتنـــــــي بروائــــــع الألحـــــان
وأعــدتَ شعــــري مـــن صدى النسيـــان
هــــذه القصيـــدة سافـــرت فــــي مقلتـــي
وسنـــــاً يحاصرنـــــي بــــــلا استئـــــذانِ
هــــذه القصيـــدة بحــــرُ أحــــزان أتتْ
كـــي تغـــرق الأحــلام فــــي شطآنــــي
حــطتْ علــى جرحـــي القديــم فأصبــحتْ
جرحـــاً جديـــداً صاح فــــي وجدانـــي
يـــا شاعــــر الشام الحزيـــن أمـــا تـــرى
جرحـــي غـــدا بحــــراً بــــلا شطـــآن
وعروبتــــي ضاعت ملامحهـــا وصرتُ
مشرداً فـــــــي أول الأزمــــــانِ

وصرختُ فـــي وجـــه القصيـــدة فالتـــوى
شعـــــــري سؤالاً ثائـــــــر النيـــــــرانِ
وبحــــثتُ عـــن وجـــه الرشيـــد لعلنـــي
ألقـــى الـــذي ضيـــعتُ مـــن أوطانـــي
بغــدادُ يـــا ألـــق العروبـــة فـــي دمـــي
يهفـــــو الفـــــؤاد لأمْسِكِ الفتـــــان
يـــا موطـــن العـــز القديـــم تحـــرري
مـــن قـــبضة الإرهـــاب والطغيـــانِ
عـــودي لنـــا جـــيشاً يصون دماءنـــا
بالحـــــق بـــــالإسلام بالقـــــرآن
بغـــداد نكـــراك الجميلـــة كالنـــدى
فـــي خاطـــري كالعطـــر كالريحـــان
فهنـــاك معـــتصمٌ وجـــيشٌ ظافـــرٌ
لبـــى النـــداءَ بنخـــوة الشجعـــانِ
وهنـــا الرشيـــد بخيلـــه وسيوفـــه
وهنـــا خلـــيل النحـــو والأوزان
والبحتـــري هنـــا ربيـــعٌ ضاحكٌ
والموصلـــي بعـــوده الرنـــان
وعلـــى الرصافـــة كـــم مهـــاة طرفهـــا
جلب الهـــوى للعـــاشق الولهـــانِ

عــتب الريــاض علــيك بــعض حنينهـــا

قـــــد تحــــــرق الأشواق كالنيـــــــران

هل شاعــــــر سكب الجــــراح قصائـــــداً

وملاحمـــــاً سحريـــــة «كالخانــــــي»[١]

والقهـــــوة السمــــــراء فــــي أشعـــــاره

شوق المـــــحب بــــــروضه الفينـــــان

شعر علي الأسمري

(١) الخاني هو الأستاذ أحمد الخاني شاعر الملاحم المعروف أهدى لي قصيدته (النيل) فجاءت قصيدتي هذه صدى لقصيدته. «علي الأسمري»

والأستاذ موسى أبو شرار
قد أهداني هذه القصيدة مشكوراً

عروس الفناجين

شعر : موسى أبو شرار

شذى مــع ضبــاب الفجــر يسري ويعبــق
تتيــــه بــــه الأنسام والنــــور يشهــــق
وشدو طيــــور باكـــــرت هبــــة الصَّبــــا
بهــا مــن حنيـــن الــعش شوق مـــؤرق
تجاوبــــه الأغصان مـــــن كل أيكـــــة
فـــــغصن يناجيهـــــا وغصن يصفـــــق
وفـــي مسمــــع الدنيــــا تراتــيل بهجــــة
تسبــــح : جل الخالـــــق المتأنـــــق
وسمـــراء تجلـــى فـــي الفناجيـــن غــادة
لهـــا فـــي حنايـــا الـــقلب وجـــد معمـــق
إذا مـــا سرى بيـــن الشفـــاه رضابهـــا
رأيت وجـــوه الصحب نشوى ترقــــرق
تعشقتهــــا طفـــــلاً أسوف عبيرهـــــا
نديـــاً ومـــن فنجـــان أمـــي يعبـــق

جــــرت صحبـــة الأيـــام بينـــي وبينهـــا
وكل صبـــــاح تستجـــــد وتعمــــق

فكـــم ليلـــة كـــانت سميــــري وصاحبـــي
وقــد شطت الأحبــاب والصحب أعنقــوا

أبــــيت أناجيهـــا إذا الهـــم زارنـــي
وشاب مـــع الأيـــام وجـــه ومفـــرق

وأصحـــو علـــى شوق إليهـــا يهزنـــي
كمـــا هـــز طفـــلاً رف طيـــر يحلـــق

إذا مت فادفنـــي إلـــى أصل جذرهـــا
وخل دمائـــي فـــي دماهـــا تدفـــق

فيـــا أحمـــد الساري إلـــى المجـــد والعـــلا
أأوفيتهـــا حقـــاً ؟ أم الشعـــر يخفـــق ؟

وأختم هذه الأوراق المعطرة بقصيدتي هذه

قهوتي والحبيب

شعر : أحمد الخاني

داعب الطيــف فـــي الغـــرام شجونـــي
يـــا ربانـــا مـــع الأصيل الحنـــون
رشف الوجـــــد ذكريـــات صبانـــا
فتـــداعت إلـــى ظـــلال الـــغصون
يـــا لعينـــيك، والصبايـــا أغـــارت
بسهـــام مـــن لحظهـــا المجنـــون
يـــوم مـــاست عـــرائس الغـــاب هونـــاً
فـــي ظليليـــن مـــن كـــروم وتيـــن
ورنت لـــي وحشيـــة العيـــن جمـــراً
وبـــدا النـــبض كاصطخـــاب الجنـــون
وقـــــفت لحظـــــة الزمـــان وصالاً
فالثوانـــي كطـــول عمـــر السنيـــن
وتنسمت مـــــن حبيبـــيَ طيبـــاً
مـــا عبيـــر الغابـــات والياسميـــن

نشرهـــــا مسك قهـــــوة، نشر عطـــــر
عطـــــر حب، لا عطـــــر عـــود ثميـــن

أفـــــأنسى فنجانهـــــا وهـــــي ترنـــــو
بهيـــــام مـــــع ابـــــتسام العيـــــون

مـــــن هواهـــــا لثـــــمت مـــــا لثمتـــــه
شفتاهـــــا، فمـــــا كـــــؤوس الجنـــــون ؟

قهـــــوة الـــــحب فـــــي لذيـــــذ رضاب
أيـــــن منهـــــا كـــــؤوس عنـــــف المجـــــون

قبلـــــة تتـــــرك الشفـــــاه سكـــــارى
سائحـــــات بكرمـــــة الزيتـــــون

قهوتـــــي والحبـــــيب والفجـــــر يصحـــــو
وهـــــزاري يصوغ أحلـــــى اللحـــــون

ونـــــدى قهوتـــــي هـــــواي قديمـــــاً
هـــــي والشعـــــر والغـــــرام فنونـــــي

استمارة

من أراد من الشعراء أن يرسل قصيدة عن القهوة أو الشاي للطبعة الثانية فليتكرم ويملأ الاستمارة التالية ويرسل القصيدة إلى أحد العناوين المدونة أدناه:

نعم إنني الشاعر...
أهدي قصيدتي ...
إلى أحمد الخاني لينشرها في كتابه «القهوة والحب»
الاسم
التوقيع
التاريخ

عنون المؤلف : الرياض ص.ب ٥٥٠٧٩
أو جريدة المسائية
أو مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان
الرياض ت: ٢٠٢٢٥٦٤ ص.ب ١٤٠٥

المصادر والمراجع

١ ـ لحن الجراح — أحمد الخاني

٢ ـ أحمد الصافي النجفي — الصافي النجفي

٣ ـ طرفة

٤ ـ المتنبي

٥ ـ النابغة الذبياني

٦ ـ شعر عرفتهم — أحمد الخاني

٧ ـ أدبيات الشاي والقهوة محمد طاهر بن عبد الغفار الكردي المكي ط٣

٨ ـ تحفة العقلاء في القهوة والثقلاء — عبد العزيز بن محمد الأحيدب

٩ ـ السلطان محمد الفاتح — الدكتور سالم الرشيدي

١٠ ـ جريدة الجزيرة المسائيـة رجب ١٤٠٥ العـدد ١٠٠٦
٢٥ محرم ١٤٠٠ العدد ٦٥٣١

صدر للمؤلف

الشعر

١ ـ لحن الجراح ط١ ١٤٠٣هـ.

٢ ـ في القطار ط١ ١٤٠٣هـ.

٣ ـ لحن البراءة ط١ ١٤٠٤هـ.

٤ ـ وعاد القبطان ط١ ١٤٠٥هـ.

٥ ـ مع الشعراء ط١ ١٤٠٥هـ.

٦ ـ الحنين ط١ ١٤٠٦هـ.

٧ ـ الممثل الصغير ط١ ١٤٠٦هـ.

٨ ـ ملحمة بدر ٣ مجلدات ط١ ١٤١٠هـ.

النثر

١ ـ التصريف الملوكي لابن جني تعليق بالاشتراك ط١ ١٩٧٠م.

٢ ـ قصة أم عامر ط١ ١٩٧٠م.

٣ ـ قصة الشاب الفدائي ط١ ١٩٧٠م.

٤ ـ قصة يوسف الصديق ط١ ١٩٧٠م.

٥ ـ سلسلة الإيمان ١٠ أجزاء ط١ ١٤٠٥هـ.

٦ ـ سلسلة البحَّار الصغير ط١ ١٤٠٦هـ.

٧ ـ فتح القسطنطينية ط١ ١٤٠٦هـ.

٨ ـ ملحمة النبي ﷺ تحليل ونقد ط١ ١٤٠٦هـ.

٩ ـ قاهر الروم ط١ ١٤٠٦هـ.

١٠ ـ شعراء عرفتهم ط١ ١٤٠٨هـ.

١١ ـ مرسة بدر وشعراؤها ط١ ١٤٠٨هـ.

١٢ ـ ديوان الانتفاضة ط٢ ١٤٠٩هـ.